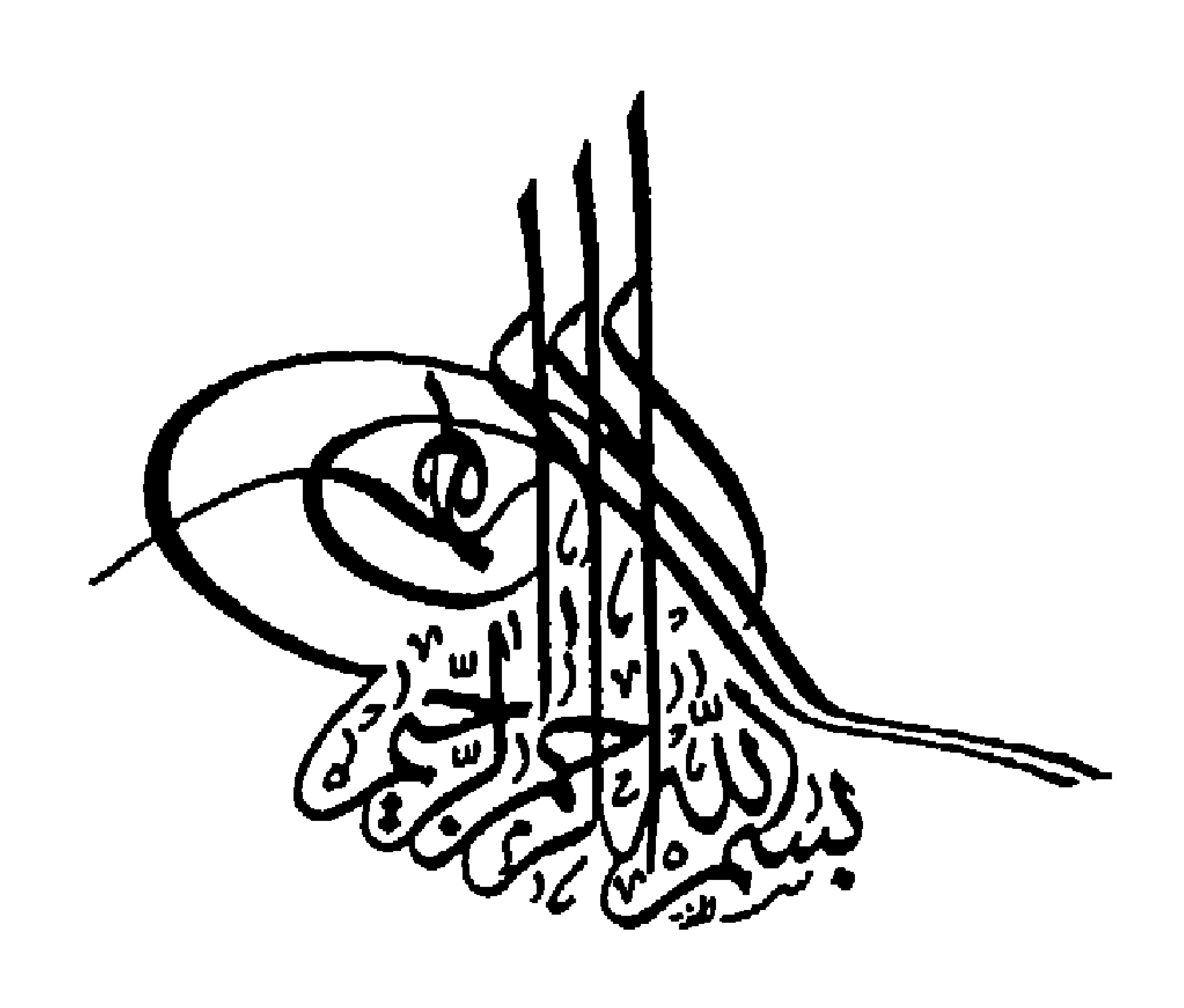
سِلْسِلَةُ رَسَائِل تَرشِيد الصَّحْوَة

الدّين في عصر العلم

الدكتور يوسف القرضاوي

المكتب الاسلامي

الدّين في عصر العلم


بسم الله الرحمن الرحيم

سِلْسِلَةُ رَسَائِل تَرشِيد الصَّحْوَة

الدّين في عصر العلم

الدكتور يوسف القرضاوي

المكتب الإسلامي

الطبعة الثالثة

١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - هاتف : ٤٥٦٢٨٠

دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧

عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٦٥٦٦٠٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومَن اتبع هداه.

أما بعد:

فمنذ بضعة عشر عاماً نشرت مجلة «منار الإسلام» التي تصدر بدولة الإمارات العربية المتحدة، بحثاً لي، ظهر في عدة مقالات، تحت عنوان «الدين في عصر العلم» ثم نشرته المجلة متكاملاً في ملحق لها، في صورة رسالة مستقلة.

ولقد أخذتُ هذا البحث وجعلته الفصل الأول من كتابي «بيِّنات الحل الإسلامي وشبهات العلمانيين والمتغرِّبين».

وذلك لأن هذا البحث يرد على شبهة رائجة يقول أصحابها: كيف تدعوننا إلى الحل الإسلامي، وهو حل يعتمد على الدين، ويعتبره مرجعاً للمجتمع في أُسسه التشريعية والأخلاقية والثقافية والاجتماعية، في عصر

العلم والتكنولوچيا، وقد انتهى عصر الدين، وتقوَّضت خيامه؟ وقد رأينا أن الغرب لم يتقدم وينطلق إلا بعد أن طلَّق الدين، وتحرر من رِبقة رجاله وكهنوته، واتجه إلى العلم والعقل، يحتكم إليهما، ويستضيء بنورهما؟ فإذا كنا نريد أن ننهض كما نهض الغرب، وأن نرقى كما رقى، فلنصنع كما صنع، ولنتحرر من الدين كما تحرر!

سنتبين في هذا البحث: أن لا خصومة عندنا بين الدين والعلم، وأن العلم عندنا دين، والدين عندنا علم، وأن حضارتنا هي الحضارة التي جمعت بين العلم والإيمان، وأن المنهج العلمي التجريبي الاستقرائي ـ الذي تفخر به الحضارة الغربية، وقامت نهضتها وتقدمها على أساسه ـ إنما اقتبس من حضارتنا العربية الإسلامية، كما شهد بذلك مؤرخو العلم.

كما بيَّن هذا البحث أن دور الدين لم ينته، ولن ينتهي، لأنه فِطرة الإنسان التي فطره الله عليها، وهو روح الحياة، وجوهر الوجود. وحاجة الإنسان إلى الدين لا يمكن أن تنتهي، حاجة عقله وقلبه، حاجة الفرد، وحاجة المجتمع، وأنه لا بديل عن الدين، لا العلم، ولا الفلسفة، ولا الأيديولوچيا الوضعية، ولا غيرها.

حتى الماركسية التي زعمت أن الدين أفيون

الشعوب جعلت من نفسها ديناً، وأعطت فلسفتها خصائص الدين.

كما رددنا على قانون الدورة الثلاثية، الذي قال به الفيلسوف الوضعي الفرنسي الشهير «أوچست كومت».

وبهذا كله يتضح لكل منصف أن الدين باق ما بقيت الحياة، وأن له مهمته كما للعلم مهمته، ولا سيما دين أول آية نزلت من كتابه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾﴾. . والقراءة مفتاح العلم وسبيله.

وبالله التوفيق، وعليه قصد السبيل.

القاهرة في ربيع الأول ١٤١٦هـ ـ

أغسطس (آب) ١٩٩٥م

يوسف القرضاوي

* * *

الدين في عصر العلم

ينفر بعض الناس من الحل الإسلامي لا لشيء إلا لأنه حل يعتمد على الدين، ويستند إلى الوحي، وهذا وحده كاف عندهم للإعراض عن هذا الحل، فنحن في عصر العلم، لا في عصر الدين، فقد أدَّى الدين ـ في رأيهم ـ دوره، ولم يعد له في الحياة الحديثة مكان!

وحُجَّة هؤلاء:

أولاً: أن الحضارة لا قيام لها إلا بالعلم، والدين يعادي العلم، والغرب الحديث لم يبلغ ما بلغ من الرقي إلا حينما رفض منطق الدين، وآمن بمنطق العلم.

فإذا أردنا أن نجاري الغرب في مدنيته وحضارته فعلينا أن نسير سيره، ونخلع رِبقة الدين من أعناقنا، وإلا بقينا في نطاق التخلف والانحطاط.

ثانياً: التسليم بما ذهب إليه فيلسوف المدرسة الوضعية الفرنسية «أوچست كومت» من القول بقانون الأدوار الثلاثة التي بدأت بالدين، وثنَّت بالفلسفة، وانتهت بالعلم، وهو غاية المطاف.

ثالثاً: ترديد ما قاله «ماركس»: أن الدين أفيون الشعب، فيتعيَّن منعه ومقاومته حتى يتخلص الشعب من الخنوع والتسليم والإذعان، وينهض للمطالبة بحقوقه، ويثور على الأوضاع الظالمة الفاسدة.

* * *

● **الحضارة والعلم:**

أما أن الحضارة لا قيام لها إلا بالعلم فهذا صحيح. وأما الربط بين قبول منطق العلم ورفض منطق الدين، واعتقاد أن الدين يعادي العلم، فهذا غير صحيح.

الدين الذي عادى العلم ووقف في وجهه، وحكم على رجاله بالموت أو بالحرمان من ملكوت السماء، هو دين الكنيسة الغربية، التي حجرت على الفكر، وعارضت العلم، وتبنت نظريات علمية قديمة أضفت عليها القداسة والعصمة، وحاربت كل مَن انتهى بحثه إلى مخالفتها، ورمته بالزندقة والإلحاد.

هذا موقف دين الكنيسة، ولا أقول دين المسيح.

* * *

• موقف الإسلام من العلم:

أما الإسلام.. فهو دين قام منذ بزغ فجره على احترام العقل، والدعوة إلى النظر والتفكر في الأنفس والآفاق، في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء، وخصوصاً أن الله سخَّر للإنسان ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه، كما قام على رفض كل دعوى بغير برهان، والإنكار على التبعية والتقليد، وعلى اتباع الظنون والأهواء، وتجريم السحر والكهانة والعرافة وما يلحق بها من الأباطيل.. وإلى جوار ذلك الإشادة بالعلم والعلماء، وتفضيل درجة العلم على درجة العبادة، والترحيب بكل علم نافع دينياً كان أو دنيوياً، بل فرضه فرض كفاية على الأمة بقدر ما يحتاج إليه المسلمون، وأخذ الحكمة من أي وعاء خرجت، وبهذه المبادئ والتوجيهات الرائدة، صنع الإسلام «المناخ» النفسي والاجتماعي لازدهار العلم، وقيام حياة علمية مضيئة الجنبات.

و «العقلانية» في الإسلام أمر اعترف به كل منصف، ولو كان من خصوم الإسلام أنفسهم.

فهذا الكاتب الماركسي «مكسيم رودنسون» يقول في

حديثه عن «العقيدة القرآنية»[1]: «القرآن كتاب مقدّس تحتل فيه العقلانية مكاناً جد كبير. فالله لا ينفك فيه يناقش ويقيم البراهين، بل إن أكثر ما يلفت النظر هو: أن الوحي نفسه - هذه الظاهرة الأقل اتساماً بالعقلانية في أي دين، الوحي الذي أنزله الله على مختلف الرسل عبر العصور، وعلى خاتمهم محمد - يعتبره القرآن هو نفسه أداة للبرهان، فهو في مناسبات عديدة، يكرر لنا أن الرسل قد جاؤوا بـ «البيِّنات»... وهو لا يألو يتحدى معارضيه أن يأتوا بوحي مثله...

والقرآن ما ينفك يقدِّم البراهين العقلانية على القدرة الإلهية: ففي خلق السماوات والأرض، واختلاف اللَّيل والنهار، وتوالد الحيوان، ودوران الكواكب والأفلاك، وتنوع خيرات الحياة الحيوانية والنباتية، تنوعاً رائع التطابق مع حاجات البَشر: ﴿لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[2][3].

---

(١) ص١٣٤ وما بعدها من كتابه «الإسلام والرأسمالية» ترجمه نزيه الحكيم، نشر دار الطليعة.

(٢) كان الأولى الاستشهاد بآية البقرة رقم (١٦٤) فهي المطابقة لكلام المؤلف هنا، ويبدو من كلام المؤلف: أنه تتبع مادة «عقل» فقط في القرآن، ولو تتبع كلمات أخرى في الموضوع مثل: «نظر»، و «تفكر»، و «فقه»، و «علم»، و «برهان»، و «لب» ونحوها لخرج بشيء كثير وكثير جداً.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٩٠

وفعل «عَقَل» (بمعنى: رَبَط الأفكار بعضها ببعض.. حاكَم... فَهِم البرهان العقلي) يتكرر في القرآن حوالي خمسين مرة، ويتكرر ثلاث عشرة مرة هذا السؤال الاستنكاري، وكأنه لازمة: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟! والكفار أُولئك الذين يرفضون الاستماع إلى دعوة محمد، يوصفون بأنهم: ﴿قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ لأنهم قاصرون عن أي جهد عقلي يهز تقاليدهم الموروثة، وهم بهذا كالعجماوات والأنعام، بل أكثر عجمة... ولذلك يكره الله هؤلاء الناس الذين لا يريدون أن يعيدوا النظر في أُسس تفكيرّهم.

«ولئن كان (يعني الله سبحانه) يرسل الآيات «الدالة» على وجوده وإرادته، وأهمها الآيات المنزَّلة على نبيه محمد، فلكي يفهمها الناس، ويجعلوا منها أساساً لتفكيرهم، ونرى الله يقدُم البيِّنة الفاصلة، ثم يختتم البرهان بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾»[1].

ويستمر الكاتب في بيان عقلانية الإسلام مقارناً هذه بما جاء في العهدين القديم والجديد، لليهود

---

(١) سورة الروم: الآية ٢٨.

والمسيحيين، إلى أن يقول: «في مقابلة هذا تبدو «العقلانية القرآنية» صلبة كأنها الصخر»[1].

ومثل هذا المناخ العقلي الذي صنعته آيات القرآن ـ كما اعترف به المفكر الماركسي وغيره ـ يشكل أخصب بيئة لإنتاج علمي مثمر، قائم على استخدام أقصى الطاقات والمواهب البَشرية.

ولكنَّا نضيف إلى ما ذكر أُموراً مهمة في موقف الإسلام من العلم، منها:

١ ـ إشارة القرآن إلى استخدام «التخطيط» في السياسة الاقتصادية والتموينية للدولة، كما هو واضح في «الخطة الخمس عشرية» من قصة يوسف الصِّدِّيق ـ عليه السلام ـ في القرآن الكريم ـ وكيف كانت هذه الخطة الحكيمة سبباً في إنقاذ مصر وما حولها من الأقطار من مجاعة مهلكة. فليس التخطيط ـ إذن ـ منافياً لعقيدة الإيمان بالقَدَر، كما يفهم بعض السطحيين[2].

٢ ـ استخدام النبي ﷺ لأسلوب «الإحصاء» منذ عهد مبكر من حياة المسلمين في المدينة، فقد روى البخاري أنه ﷺ بعد الهجرة إلى المدينة، أمر بعض

---

(١) انظر فصل «العقيدة القرآنية» من كتاب «الإسلام والرأسمالية».

(٢) انظر «الإسلام والمنهج العلمي» للدكتور عبد العزيز كامل.

أصحابه أن يحصوا له عدد الذين يلفظون بالإسلام. فأحصوهم، فكان عددهم خمسمائة وألفاً[١].

وبهذا نعلم أن «الإحصاء» أسلوب إسلامي أصيل، وليس سلعة مستوردة من الغرب.

٣ ـ إقراره صلوات الله وسلامه عليه لمبدأ التجربة في الأُمور الدنيوية، والأخذ بنتائجها وإن كانت مخالفة لرأيه ﷺ، كما وقع ذلك في حادثة تأبير النخل وقوله لهم في ذلك: «أنتم أعلم بأمر دنياكم»[٢].

٤ ـ تشجيع الاقتباس وأخذ النافع من الغير، في الأمور «التقنية» والدنيوية، التي لا تتعلق بالعقائد والقِيَم والآداب والشرائع ونحوها، مما تتمايز به المجتمعات «الأيديولوچية» بعضها عن بعض. ولهذا أخذ الرسول ﷺ برأي سلمان في حفر الخندق حول المدينة، مع أنه من أساليب الفُرس. وصنع له نجار رومي منبراً يخطب عليه. وقد روي عنه قوله عليه الصلاة والسلام: «الحكمة ضالة المؤمن أنَّى وجدها فهو أحق بها»[٣].

---

(١) رواه البخاري في كتاب «الجهاد» من صحيحه.

(٢) رواه مسلم في صحيحه.

(٣) رواه الترمذي وابن ماجه في سننهما. وسنده ضعيف، ولكن معناه صحيح.

٥ ـ إشادة القرآن الكريم بقيمة الصناعة ودورها في الحياة، حتى إن رُسُل الله والمصطفين الأخيار من عباده كانوا أصحاب حِرَف وصناعات أتقنوها وتفوقوا فيها. فنوح شيخ المرسلين يصنع السفن، وإبراهيم أبو الأنبياء وابنه إسماعيل بَنَّاءان يرفعان القواعد من البيت (الكعبة)، وداود يصنع الدروع ويلين له الحديد.. وسليمان يسيل الله له عَيْن القَطْر، ويُسخِّر له الجن يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات، وذو القرنين يقيم السدَّ العظيم من الحديد والنحاس المذاب[1].

وهذا كله يبيِّن لنا طبيعة «المناخ» الذي هيأه الإسلام لظهور «المنهج العلمي» السليم، الذي لم يملك باحثو الغرب أن ينكروه.

يقول العلاَّمة «رينيه ميليه»: لقد جاء المسلمون بمبدأ في البحث جديد؛ مبدأ يتفرَّع من الدين نفسه، هو مبدأ التأمل والبحث، وقد مالوا إلى العلوم وبرعوا فيها،

---

(١) انظر في تفصيل ذلك: فصل (الرسول والعلم التجريبي) من كتابنا: «الرسول والعلم» نشر مؤسسة الرسالة، ودار الصحوة.

وهم الذين وضعوا أساس علم الكيمياء، وقد وُجِدَ فيهم كبار الأطباء».

ويقول الدكتور «فرنتو رونثال»: «إن أعظم نشاط فكري قام به العرب يبدو لنا جلياً في حقل المعرفة التجريبية، ضمن دائرة ملاحظاتهم واختباراتهم، فإنهم كانوا يبدون نشاطاً واجتهاداً عجيبين، حين يلاحظون ويمحصون، وحين يجمعون ويرتبون ما تعلَّموه من التجربة».

ويقول المؤرخ الفيلسوف الاجتماعي الشهير «چوستاف لوبون»: «إن العرب هم الذين عَلَّموا العالَم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين».

* * *

• أثر العلم الإسلامي في الحضارة:

ولا عجب أن قامت في هذا المناخ حضارة سامقة الذرا، جمعت بين العلم والإيمان، ومزجت بين الدين والدنيا، حتى إن أوروبا لم تُقِم نهضتها العلمية إلا حين مسَّها قبس من نور هذه الحضارة، أخرجها من سَجن التقليد والدوران حول القديم، من القياس الأرسطي، والمنطق الصوري، إلى باحة الكشف والاستقراء

والملاحظة والتجربة، وكل ذلك من أثر المنهج العلمي الإسلامي الذي اكتشفه المسلمون متأثرين بالإسلام قبل أي شيء آخر.

يقول المؤرخ والفيلسوف الاجتماعي الفرنسي الدكتور «چوستاف لوبون» في فصل له عن «مناهج العرب العلمية» من كتابه «حضارة العرب»:

«ليست المكتبات والمختبرات والآلات غير وسائل للدرس والبحث، وتكون قيمتها في معرفة الاستفادة منها، وقد يستطيع المرء أن يكون مطَّلِعاً على علوم الآخرين، وقد يبقى عاجزاً عن التفكير وابتداع أي شيء مع ذلك، فيظل تلميذاً غير قادر على الارتقاء إلى درجة أستاذ، وسيبدو من الاكتشافات التي نذكرها في الفصول الآتية، مقدار ما اكتشفه العرب بما لديهم من وسائل الدرس.. والآن أقتصر على ذكر المبادئ الأربعة التي وجَّهت أبحاثهم:

لم يلبث العرب بعد أن كانوا تلاميذ معتمدين على كتب اليونان، أن أدركوا أن التجربة والترصد خير من أفضل الكتب، وعلى ما يبدو من ابتذال هذه الحقيقة جَدَّ علماء القرون الوسطى في أوروبا ألف سنة قبل أن يعلموها.

ويُعْزَى إلى «پيكون» على العموم أنه أول مَن أقام التجربة والترصد اللَّذين هما ركن المناهج العلمية الحديثة مقام الأستاذ، ولكن يجب أن نعترف اليوم بأن ذلك كله من عمل العرب وحدهم.. وقد أبدى هذا الرأي جميع العلماء الذين درسوا مؤلَّفات العرب، ولا سيما «هَنبولْد»، فبعد أن ذكر هذا العالم الشهير أن ما قام على التجربة والترصد هو أرفع درجة في العلوم قال: «إن العرب ارتقوا في علومهم إلى هذه الدرجة التي كان يجهلها القدماء تقريباً».

وقال «مسيو سيديُّو»: «إن أهم ما اتصفت به مدرسة بغداد في البداءة هو روحها العلمية الصحيحة التي كانت سائدة لأعمالها، وكان استخراج المجهول من المعلوم والتدقيق في الحوادث تدقيقاً مؤدياً إلى استنباط العلل من المعلولات وعدم التسليم بما لا يثبت بغير تجربة مبادئ قال بها أساتذة من العرب، وكان العرب في القرن التاسع من الميلاد حائزين لهذا المنهاج المجدي الذي استعان به علماء القرون الحديثة بعد زمن طويل للوصول إلى أروع الاكتشافات».

قام منهاج العرب على التجربة والرصد، وسارت أوروبا في القرون الوسطى على درس الكتب والاقتصار

على تكرار رأي المعلم، والفرق بين المنهجين أساسي، ولا يمكن تقدير قيمة العرب العلمية إلا بتحقيق هذا الفرق.

واختبر العرب الأُمور وجرَّبوها، وكانوا أول مَن أدرك أهمية هذا المنهاج في العالَم، وظلوا عاملين به وحدهم زمناً طويلاً، قال «دولَنْبِر» في كتاب «تاريخ علم الفلك»: «تَعدُّ راصدين أو ثلاثة بين الأغارقة، وتَعدُّ عدداً كبيراً من الرُّصَّاد بين العرب، وأما في الكيمياء فلا تجد مجرِّباً يونانياً مع أن المجرِّبين من العرب فيها يُعَدّون بالمئات».

ومنح اعتماد العرب على التجربة مؤلَّفاتهم دقة وإبداعاً لا يُنتظر مثلهما من رجل تعوَّد درس الحوادث في الكتب، ولم يبتعد العرب عن الإبداع إلا في الفلسفة التي كان يتعذَّر قيامها على التجربة.

ونشأ عن منهاج العرب التجريبي وصولهم إلى اكتشافات مهمة، وسنرى من مباحثنا في أعمال العرب العلمية أنهم أنجزوا في ثلاثة قرون أو أربعة قرون من الاكتشافات ما يزيد على ما حققه الأغارقة في زمن أطول من ذلك كثيراً، وكان تراث اليونان العلمي قد انتقل إلى البيزنطيين الذين عادوا لا يستفيدون منه منذ زمن طويل،

ولما آل إلى العرب حوَّلوه إلى غير ما كان عليه، فتلقاه ورثتهم مخلوقاً خلقاً آخر.

ولم يقتصر شأن العرب على ترقية العلوم بما اكتشفوه، فالعرب قد نشروها كذلك بما أقاموا من الجامعات وما ألَّفوا من الكتب، فكان لهم الأثر البالغ في أوروبا من هذه الناحية، وسترى في الفصل الذي ندرس فيه هذا التأثير، أن العرب وحدهم كانوا أساتذة الأُمم النصرانية لعدة قرون، وأننا لم نطلِّع على علوم قدماء اليونان والرومان إلا بفضل العرب، وأن التعليم في جامعاتنا لم يستغن عما نُقل إلى لغاتنا من مؤلَّفات العرب إلا في الأزمنة الحاضرة»[1].

ومما لا ينازع فيه أحد أن العرب قبل الإسلام لم يكن لهم اهتمام كبير بالجانب العلمي، لغلبة الجانب الأدبي والاهتمام بفنون القول عليهم.

فهذا الاتجاه العلمي الذي نوَّه به مؤرخو الحضارة الإسلامية العربية، إنما هو من صنع الإسلام، الذي حثَّهم على البحث والتأمل في آيات الله في الأنفس والآفاق، والنظر في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من

---

(١) «حضارة العرب» ص٤٢٣ ـ ٤٣٧، الطبعة الأولى.

شيء، وهيأ ـ قبل ذلك ـ المناخ النفسي والعقلي الذي ازدهر فيه العلم هذا الازدهار[1].

فإذا كان مؤرخو العلم الأوروبيون قد أنكروا فضل العرب الفلسفي، فإنهم لم يستطيعوا إنكار فضلهم العلمي، وإن كان الكثيرون منهم يعترفون به على أساس أنه نتيجة لعلوم اليونان. وليس هنا مجال مناقشة هؤلاء.

ونحن نعلم أن أفكار «الحسن بن الهيثم» في علم «البصريات» عاشت في أوروبا إلى زمان ليس ببعيد عنا، كما نعلم أن أبحاث «الطوسي» في «الرياضيات» وتناوله لهندسة «إقليدس» ومعادلاته، بقيت زمناً طويلاً يتناولها علماء أوروبا، وكذلك كتاب «ابن سينا» ـ الطبي ـ «القانون» بقي المرجع الأساسي لكليات الطب في أوروبا حتى القرن السابع عشر.

وما زالت عناية الباحثين بالعلم العربي الإسلامي قائمة على أشدها، مهتمين ببيان مكانته في التراث العلمي

---

(١) انظر: فصل (الرسول والعلم التجريبي) من كتابنا «الرسول والعلم» ص٣٧ ـ ٦٠، طبع مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ودار الصحوة ـ القاهرة.

العالمي، وممن وجَّه الأنظار إلى قيمة هذا العلم، مؤرخ تاريخ العلم الإنساني، الأستاذ «چورچ سارتون».

وقد لفت الأستاذ الدكتور علي سامي النشار الأنظار إلى أعمال هذا الباحث الكبير، وعلى الأخص في كتابه الممتاز «تاريخ العلم».

فقد عرض في مواضع متعددة من هذا الكتاب لأهمية العلم العربي ـ الإسلامي ـ في العصور الوسطى.. وقرر: أن أعظم النتائج العلمية لمدة أربعة قرون إنما كانت صادرة عن العبقرية الإسلامية.

كما بيَّن أيضاً: أن معظم الأبحاث العلمية الممتازة ـ خلال هذه القرون الأربعة ـ إنما تمت في لغة العلم الكبرى حينئذ وهي اللُّغة العربية[١].

ويذكر الدكتور النشار في كتابه القيم «مناهج البحث

---

(١) انظر كتاب «مناهج البحث عند مفكري الإسلام واكتشاف المنهج العلمي في العالَم الإسلام» للدكتور علي سامي النشار ص٣٥٣ ـ ٣٥٩، كما نبّه الدكتور النشار على كتاب لسارتون هو «العلم القديم والمدينة الحديثة» ترجمة الدكتور عبد الحميد صبرة ص٧٨، ٧٩، ١٢٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٧، ومواضع أخرى متعددة.

عند مفكري الإسلام، واكتشاف المنهج العلمي في العالَم الإسلامي» نتيجتين هامتين لبحثه كله:

الأولى: أن المفكرين المسلمين الحقيقيين، الممثلين لروح الإسلام، لم يقبلوا المنطق الأرسطي الصوري، لأنه يقوم على المنهج القياسي، ولا يعترف بالمنهج الاستقرائي أو التجريبي.

والنتيجة الثانية: أن المسلمين قد وضعوا هذا المنهج العلمي بجميع عناصره، وكانت اسبانيا هي المعبر الذي انتقل خلاله من العالَم الإسلامي إلى أوروبا[1].

وينقِل مفكر الهند الكبير المرحوم الدكتور محمد إقبال عن «دوهرنج» قوله: «إن آراء «روجر بيكون» عن العلم أصدق وأوضح من آراء سَلَفه. ومن أين استمد «روجر بيكون» دراسته العلمية؟.. من الجامعات الإسلامية في الأندلس».

ويقرر الأستاذ «بريفولت» في كتابه «بناء الإنسانية»: أن «روجر بيكون» درس العلم العربي دراسة عميقة ـ وأنه لا يُنسب له ولا لسميه الآخر «فرنسيس بيكون» أي فضل

---

(١) المصدر السابق ص٣٨٢.

في اكتشاف المنهج التجريبي في أوروبا. ولم يكن «روجر بيكون» في الحقيقة إلا واحداً من رُسُل العلم والمنهج الإسلامي إلى أوروبا المسيحية.

ولم يكفّ «روجر بيكون» عن القول بأن معرفة العرب وعلمهم هما الطريق الوحيد للمعرفة الحقة لمعاصريه.

ثم يذكر أنه ليست هناك وجهة نظر من وجهات العلم الأوروبي لم يكن للثقافة الإسلامية تأثير أساسي عليها. ولكن أهم أثر للثقافة الإسلامية في العلم الأوروبي هو تأثيرها في «العلم الطبيعي» و «الروح العلمي»؛ وهما القوتان المميزتان للعلم الحديث، والمصدران الساميان لازدهاره.

ويقرر «بريفولت» في حسم وإصرار:

«إن ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس هو ما قدّموه لنا من اكتشافهم لنظريات مبتكرة غير ساكنة. إن العلم يدين للثقافة العربية بأكثر من هذا. إنه يدين لها بوجوده...

«إن ما ندعوه بالعلم ظهر في أوروبا نتيجة لروح جديدة في البحث، ولطرق جديدة في الاستقصاء.. طرق التجربة والملاحظة والقياس، ولتطور الرياضيات في

صورة لم يعرفها اليونان. وهذه الروح، وتلك المناهج إنما أدخلها العرب إلى العالَم الأوروبي»[1].

* * *

● **الإسلام يوحِّد بين الدين والعلم:**

وبهذا يتضح لنا أن لا مجال في الإسلام لدعوى التعارض أو العداوة بين الدين والعلم، فالدين في الإسلام علم، والعلم فيه دين. كما تشهد بذلك أُصول الإسلام وتاريخه جميعاً. فالدين في الإسلام علم، لأنه لا يعتمد على الوجدان وحده، بل يقوم على النظر والتفكير ورفض التقليد الأعمى، والاعتماد على البرهان اليقيني لا على الظن واتباع الهوى.

والعلم في الإسلام دين، لأن طلبه فريضة على كل مسلم ومسلمة، وهو فريضة عينية أو كفائية، تبعاً لحاجة الفرد أو حاجة المجتمع. والاشتغال بالعلم النافع ـ دينياً كان أم دنيوياً ـ عبادة وجهاد في سبيل الله. وهذه حقيقة شهدها وشهد بها كثير من الباحثين والمؤرخين الغربيين. ولا بأس أن نذكر هنا بعض هذه الشهادات تأكيداً وتثبيتاً لمن تهمهم أقوال الغربيين.

---

(١) «مناهج البحث عند مفكري الإسلام» ص٣٨٢، ٣٨٤.

يقول العلامة «هورتن»: «في الإسلام وحده تجد اتحاد الدين والعلم. فهو الدين الوحيد الذي يوحِّد بينهما. فتجد فيه الدين ماثلاً متمكناً في دائرة العلم. وترى وجهة الفلسفة ووجهة العلم متعانقتين، فهما واحدة لا اثنتان».

ويقول «إتيان دينيه»: «إن العقيدة الإسلامية لا تقف عقبة في سبيل الفكر، فقد يكون المرء صحيح الإسلام، وفي الوقت نفسه حر الفكر، ولا تقتضي حرية الفكر أن يكون المرء منكراً لله. لقد رفع «محمد» قَدْر العلم إلى أعظم الدرجات، وجعله من أول واجبات المسلم. ويقول: «يوزن يوم القيامة مِداد العلماء بدماء الشهداء»[1]، «ورفع فضل العلم على فضل العبادة»[2].

* * *

---

(١) حديث ذكره الغزالي في كتاب «العلم» من «الإحياء» وقال الحافظ العراقي في تخريجه: أخرجه ابن عبد البر من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف.

(٢) كحديث: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي»، رواه الترمذي من حديث أبي أمامة وقال: حسن صحيح.

● مشكلة التعارض بين الدين والعلم وأين نشأت؟

وإذا كان هذا موقف الإسلام من العلم، فمن أين نشأت مشكلة التعارض بين العلم والدين؟

الحقيقة كما يقول الإمام الأكبر الشيخ الدكتور عبد الحليم محمود[1]:

«إن مشكلة التعارض بين الدين والعلم، إنما نشأت في أوروبا بعيدة عن الجو الإسلامي، إنها تصوِّر نزاعاً في بيئة بعيدة كل البُعد عن الروح الإسلامية، التي حثَّت الإنسانية على التعليم والتعلم، والتي نشأ المنهج العلمي ـ الذي يعتبرونه حديثاً ـ بين ربوعها، قديماً بقدمها، والتي أنشأت على أساس من هذا المنهج حضارة ضخمة، لا تزال تكشف كل يوم الكثير من أنحائها العميقة.

«وما من شك في أن الحضارة الإسلامية هي ـ كما يقول الأستاذ «بريفولت» ـ التي قدَّمت إلى الحضارة الغربية الحديثة المنهج العلمي وأُصول العلم نفسه، أي الحقائق المكتشفة في المجالات المختلفة.

«والأمر العام الذي نريد أن ننبه عليه، هو: أن

(١) من بحث عن «شخصية المسلم» ألقاه في المؤتمر الرابع لـ «مجمع البحوث الإسلامية».

مسألة التعارض بين الدين والعلم، إنما هي مسألة وهمية إذا نظرنا إلى حقيقة الأمر.

«ذلك أن العلم وممثليه الحقيقيين: يعترفون في صراحة لا لَبْس فيها، وفي وضوح لا خفاء فيه: بأن دائرة أبحاثهم، إنما هي المادة، وإنما هي المحسّ، وأنهم يعتمدون في ذلك على التجربة، وعلى الملاحظة، إنهم يعتمدون على الاستقراء على وجه العموم، وليس الاستقراء إلا تتبع جزئيات مُحسَّة، تتبعها بالملاحظة، أو بإجراء التجارب عليها. والمنهج العلمي إذن: إنما هو منهج لمعرفة كيفيات المادة، وإذا ما خرج الأمر عن دائرة المادة، فقد خرج عن دائرة العلم.

«وعلى هذا الأساس: فليس للعلم مطلقاً دخل في أُمور الدين ـ إثباتاً وإقراراً، أو نفياً وإنكاراً، وإذا ما قال قائل: إن العلم يثبت كذا من الأُمور الروحية، فإنه يكفينا منه هذه الكلمة، لنسحب ثقتنا به كعالم، وإذا ما قال: إن العلم ينكر كذا من الأُمور الروحية، فإن هذه الكلمة تكفي أيضاً لسحب ثقتنا به كعالم، إذ أن العلم في المجال الروحي، لا يثبت ولا ينفي، وهذا واضح مما سبق أن ذكرناه.

«ومع ذلك فقد يتيح العلم بأبحاثه في ارتباط الكون

وتنسيقه وإبداعه، والتناغم الذي يسوده، والدقائق الباهرة التي يبينها «علم التشريح» ـ مثلاً ـ في التركيب الحيواني، قد يتيح العلم من كل ذلك لعلماء الدين مواد يبنون عليها تذكيرهم وعظاتهم، وبيانهم: أن العالَم لم يكن نتيجة الصدفة العمياء أو الاتفاق الأصم، يبينون من نتائج العلم أن الآيات في مجال المادة نفسها تشهد أنها من صنع الله الذي أتقن كل شيء: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾[1].

* * *

● العلوم لا تعارض الدين بل تخدمه من جهتين:

ويزيد أستاذنا المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز هذا الأمر إيضاحاً حين يتحدث عن مراتب العلوم من حيث مقوِّمات موضوعاتها، فيبيِّن أن لا اشتراك بين الدين والعلم في موضوع ما، ولهذا لا يعقل التعارض بينهما. وإنما يُتصور التفاهم وحُسْن الجوار على الأقل، إن لم يكن التعاون والتضامن.

---

(١) سورة فصلت: الآية ٥٣.

يقول ـ رحمه الله ـ في كتابه القيم «الدين»: «ولو أننا أخذنا في تصنيف موضوعات العلوم، لا باعتبار شرف غايتها المباشرة، بل بحسب مقوِّماتها النوعية، وتكامل عناصرها بالازدياد التدريجي، لحصلنا بينها على هذا الترتيب التصاعدي نفسه، إذ نرى كل واحد منها يحتوي ما قبله ويزيد عليه عنصراً جديداً: فالحياة النباتية تستلزم وجود الجسم بأجزائه، وجزئياته، وعناصره، وذَرَّاته، وطاقاته، وتزيد عليه وظائف أخرى. والحياة الحيوانية تحتوي الحياة النباتية بجميع وظائفها، وتزيد عليها. والحياة الإنسانية فيها كل الحياة الحيوانية، وتزيد وظائف أعلى. وهذه الوظائف نفسها طبقات بعضها فوق بعض، وأعلاها الوظيفة الروحية التي تتطلع إلى الحقيقة الكبرى.

«هذا البيان يرينا على أي وجه يمكن أن نفهم الصلة بين العلم الإلهي (علم الدين) وسائر العلوم (طبيعية، أو رياضية، أو فلكية، أو نفسية، أو اقتصادية، أو منطقية، أو اجتماعية، أو تاريخية، أو لُغوية، أو غيرها)، وأنها ليست صلة وحدة في الموضوع، ولا اشتراك في الأهداف، إذ مهما تعالج هذه العلوم من مشاكل، فليس واحد منها يتصدَّى لعلاج المشكلة الكبرى

التي انتهض الدين لحلها. إنها كلها تبحث عن الكائنات، وليس شيء منها يبحث عن مبدئها الأول وغايتها القصوى. غير أنها كلها تستطيع أن تزجي لهذا المطلب خدمة ما. من قريب أو بعيد، ولن يستغني الدين عن العلوم إلا لو استغنت المقاصد عن وسائلها ومقدماتها، أو الدعاوى عن حججها وبيِّناتها، فكما أن المجهول لا يُتوصل إليه إلا عن طريق المعلوم، والغائب لا يُدرك إلا على ضرب من القياس على الشاهد، كذلك الحقائق العليا لا يسهل الصعود إليها إلا على سلم من حقائق الدنيا.

«فإن بعدت صلة بعض العلوم بالدين، وعجزت عن أن تقدِّم له مَدَداً إيجابياً ملموساً، فإنها ـ بما تبدِّد من ظلمات الأوهام. وبما تبعث من النور في جوانب النفس ـ تقوم بوظيفة تطهير وتنقية، لا بد منها لتهيئة جو عقلي صالح لاعتناق العقائد السليمة، حتى إذا ركن القلب إلى شيء لكان ركونه إليه على بصيرة وبيِّنة، لا مدفوعاً بحمية الجهل، ولا منقاداً بسذاجة المحاكاة: ﴿ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1].

---

(١) سورة الزمر: الآية ٩.

«ومهما يكن من أمر؛ فالمعقول أنه إن لم يكن بين العلم والدين تعاون من قريب ولا بعيد، كان بينهما على الأقل من التفاهم وحُسْن التجاور ما بين فروع الصناعات المختلفة، إذ ليس يُعقل أن يكون هناك تعارض وتناقض بين أمرين لا اشتراك بينهما في موضوع واحد.

* * *

• تفسير المصادمات التي وقعت بين العلم والدين:

«وهنا يحق لنا السؤال عن تفسير تلك المصادمات العنيفة، التي ظهرت في التاريخ غير مرة، بين العلوم والأديان. لا نعني ذلك الصراع الصوري الذي يُسْتَغل فيه اسم العلم أو الدين أحياناً، ليكون ستاراً للمقاصد الخفية، والمطامح المختلفة، من الثروة، والنفوذ، والجاه، وسائر المصالح العاجلة، كما لا نعني الصراع الحقيقي الدائم بين النزعات الروحية السامية، التي تدفع إلى التضحية وضبط النفس والاعتدال، وبين النزعات المادية المضادة التي تهدف إلى الفوضى والإباحة والاستئثار. وإنما نطلب تفسير تلك المعارضة الفكرية التي تقع بحُسْن نية بين المعسكرين العلمي والديني، فيقف كل واحد منهما موقف التكذيب والإنكار لما عند الآخر.

«والجواب أن هذه المعارضة تحدث ـ فيما نعلم ـ على إحدى صورتين:

«الصورة الأولى: أن يقف أحد الطرفين موقف المعارضة لما عند الآخر جملة، لا بناء على حُجَّة تدحضه، أو شُبهة تضعفه، بل عفواً واعتباطاً، أو لمجرد جهله به، ظناً منه أن كل ما لم يدخل في دائرة علمه في الحال فليست له حقيقة. وهذا لعمري من قصر النظر، بل من الجهل والغرور، فإن التكذيب بما لم يحط الإنسان بعلمه ولم يأته تأويله، خطأ لا يرتكبه الراسخون في العلم والدين، وإنما يقع فيه المغرورون من العامة أو «أنصاف المتعلمين»، وهؤلاء أشد خطراً من الجهلاء، لأن علمهم في الحقيقة جهل مركَّب، وإنما الإنصاف أن يكون كل امرئٍ عارفاً بقدر نفسه، واقفاً عند حده، بنَّاءً غير هدَّام.

والسبيل القاصد في ذلك أن يثبت كل فريق ما وصل إليه، ولا ينكر ما لم يصل إليه.

«وقد رأينا العلماء المتخصصين في فرع من العلوم الطبيعية أو العقلية يعتمدون النتائج التي وصل إليها المتخصصون في فرع آخر منها ـ كل في نطاق تخصصه ـ ولا ينتظرون أن يعيدوا كلهم ما جرَّبه أو برهنه بعضهم،

وهذا هو الوضع السليم الذي تتقدم به المعارف الإنسانية، إذ لو وجب أن يعيد كل عالم بحث كل مسألة بنفسه، لما تقدَّمت العلوم خطوة واحدة.

«وكذلك ينبغي أن يكون الشأن بين حَمَلة العلوم وحَمَلة الأديان..

«ألم يُجْمِع العلماء الآن على إمكان تحطيم النواة الذَرِّية، واستخدام طاقتها الجبَّارة في صنع الأعاجيب، مع أنه لم يباشر هذه التجربة منهم إلا نفر قليل؟ فماذا يمنعنا أن نؤمن بالتجارب الروحية المتكررة التي شهدها الأنبياء وأرباب البصائر النيِّرة في مختلف العصور، وإن لم يشهد الناس منها إلا نتائجها الخارقة؟

«إنه إذا كان من واجب الأديان أن تهادن العلوم ولا تنابذها، وكان من الخير لها أن تستثمر كافة المعارف البَشرية وتتسلح بنتائجها، فإن من الخير للعلوم كذلك أن تدع الأديان تكمل ما فيها من نقص، وتملأ ما تتركه في النفوس من فراغ، بما يملؤه من الحقائق الروحية، فإن لم تفعل فلا أقل من أن تلتزم شقة حياد، فلا تعادي الأديان ولا تنكرها جملة، فإن إنكار الدين جملة إنكار ضمني لأُمور واقعية، تحتويها الأديان كلها، ولا يحتويها علم من العلوم، ألا وهي عناصر الإيمان بالحقيقة العليا وتقديسها وعبادتها.. معان هي من مادة الحياة التي قد

يفسِّرها العلم، ولكنه لا يخلقها، وقد ينقب عن أطوارها ويتفهم نشأتها، ولكنه لا يستطيع أن يتجاهل وجودها، أو يدَّعي لنفسه أنه يحل محلها».

«الصورة الثانية: أن تكون هناك مسألة أو مسائل معيَّنة تنطق فيها العلوم والأديان بحكمين متناقضين. وإنما يحدث ذلك حينما تتناول الأديان إلى جانب عنصرها الروحي شيئاً من موضوعات العلوم وحقائق المشاهدات، وتذهب في ذلك مذهباً معيَّناً، تفرضه على المتدينين بها فرضاً. فهذا الجانب وإن كان عَرَضياً في الأديان، وكان سبيله في الغالب سبيل الوسائل لا المقاصد، إلا أنه يُعَد معياراً لمقدار ما في كل دين من صحة أو فساد، على قدر اتفاقه مع مقررات العلم الصحيح وقضايا العقل السليم، أو اختلافه معها، فإنه إذا كان الدين حقاً، والعلم حقاً، وجب أن يتصادقا ويتناصرا. أما إذا تكاذبا وتخاذلا فإن أحدهما لا محالة يكون باطلاً وضلالاً»[1].

ومصداق ذلك أن الكنيسة الغربية في العصور الوسطى عندهم تبنَّت نظريات وآراء معيَّنة في الفلك والفيزياء والجغرافيا وغيرها من العلوم، وأضفت على هذه الآراء لوناً من القداسة الدينية، وأصبحت جزءاً من

---

(١) «الدين» للدكتور محمد عبد الله دراز ص٧٤ ـ ٧٨.

معتقداتها، التي يشب عليها الصغير ويهرم عليها الكبير..

فلما بزغ فجر النهضة العلمية في أوروبا، على أيدي جماعة من علمائهم ومفكريهم الأحرار ـ الذين تأثروا بالمنهج العلمي الذي كان معروفاً في العالَم الإسلامي ـ اصطدمت أفكارهم ومكتشفاتهم اصطداماً مباشراً بتلك النظريات المقدَّسة. وكان النزاع المرير المعروف في الغرب بين العلم والدين[1].

* * *

● دور الدين لم ينته ولن ينتهي:

بقي ما يقال من أن الدين قد انتهى دوره، وأخلى مكانه للعلم الحديث: ما مدى صحة هذا الزعم؟ وهل يمثل حقيقة علمية أو منطقية أو واقعية؟

والذي نجيب به مطمئنين كل الاطمئنان: أن هذا الزعم غير صحيح على الإطلاق، فالدين ليس شيئاً طارئاً على الإنسان، ولا أمراً على هامش الحياة، بحيث يُستطاع اطراحه والاستغناء عنه في عصر من الأعصار.

* * *

---

(١) انظر في ذلك كتاب «الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية» للأستاذ الإمام محمد عبده.

مناقشة نظرية «أوجست كومت»

ولقد جاء زمن راجت فيه لدى بعض الناس نظرية «الأدوار الثلاثة» التي ذهب إليها الفيلسوف الفرنسي «أوچست كومت» ـ مؤسس المدرسة الوضعية التقليدية (١٧٩٨ ـ ١٨٥٧) ـ وتتلخص في أن العقل الإنساني قد مَرَّ بمراحل أو أدوار ثلاثة، هي: الدور اللاهوتي أو الديني، والدور الميتافيزيقي أو التجريدي، والدور الواقعي أو الوضعي ـ وهو الدور العلمي ـ وهذا هو ما يسمى «قانون الدَوْرة الثلاثية».

في الدور الأول كان العقل يبحث في كُنْه الموجودات وأصلها ومصيرها.. معتمداً على الخيال.. فالظواهر تحدث بفعل كائنات غير منظورة تختفي وراء الطبيعة المنظورة، كالآلهة والشياطين.

وفي الدور الميتافيزيقي ارتقى العقل، فتخلَّى عن الكائنات غير المرئية، ليردّ الظواهر إلى علل مجرَّدة خفية، يتوهمها في باطن الأشياء، وهي معان مجرَّدة، وبذلك أحل «المجرَّد» محل «المشخَّص»، ووضع

الاستدلال موضع الخيال. أما الملاحظة والمشاهدة فتحتل فيه مكاناً ثانوياً.

وفي الدور الثالث ـ الواقعي ـ يتجنب العقل البحث عن أصل الكون ومصيره، وعلله الخفية رأساً، ولا يهتم إلا بمعرفة الظواهر واكتشاف قوانينها، والعلاقات المطردة بينها، ويقيمها على أساس من الملاحظة والتجربة، لا من الخيال، ولا من الاستدلال. وبهذا يهتم العلم بالإجابة عن السؤال: كيف حدث الشيء؟ وليس عن السؤال: لماذا حدث؟[1].

وعلى هذا يكون طَوْر التفكير الديني.. يمثل ـ في نظر كومت ـ مرحلة الطفولة للعقلية الإنسانية.. على حين يمثل طَوْر الفلسفة الميتافيزيقية مرحلة المراهقة..

أما طَوْر العلم التجريبي فيمثل مرحلة الكهولة والرشد، إذ ما عدا قضايا العلم الواقعي الحِسِّي لا يعدو أن يكون خيالاً أو كلاماً في كلام.

ويعبِّر عن ذلك فيلسوف ألماني تأثر بـ «كومت» وهو «لودڤيج فويرباخ» (١٨٠٤ ـ ١٨٧٢) فيقول:

---

(١) انظر: «أُسس الفلسفة»، للدكتور توفيق الطويل ص١٩٤، ١٩٥ ـ الطبعة الثالثة.

«الله كان فكرتي الأُولى.. والعقل كان فكرتي الثانية.. والإنسان - بمحيطه الواقعي - هو فكرتي الثالثة والأخيرة»[1].

هذه هي النظرية التي لا زال بعض الكاتبين في ديارنا يرددونها، ويتشبثون بها، معلنين - في تعالم وغرور - أنّ عهد «الغيبيات» قد طويت أعلامه، بعد أن قامت دولة العلم، وسقطت كل قضية لا يمكن اختبارها في المعمل! هذا مع أن المفكرين والنُقّاد - في الغرب ذاته - قد بيَّنوا زيف هذه النظرية الوهمية وبطلانها، وأتوا على بنيانها من القواعد.

ومن أبرز الأدلة على بطلان هذه النظرية ما يلي:

إن «كومت» وأنصاره جعلوا من نظريته قانوناً يستوعب التاريخ كله في شوط واحد، قطعت الإنسانية ثلثيه بالفعل، ونفضت - أو كادت تنفض - يدها منهما إلى غير رجعة، فلن تعود إليهما إلا أن يعود الكهل إلى شبابه وطفولته.

ولو أنهم جعلوا منه سلسلة دورية، كلما ختمت

---

(١) انظر: «الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي»، للدكتور محمد البهي ص٢٨١ - الطبعة الثانية.

البَشرية شوطاً، رجعت عَوْداً، لكان الخطأ في هذه النظرية أقل شناعة[1]، وربما كان «تاريخ المعرفة» في الغرب يؤيد ذلك.

«فقد كانت معرفة الإنسان قبل تفلسف الإغريق ذات طابع ديني.. ثم أصبحت على عهد «سقراط» و «أفلاطون» عقلية.. ثم مالت بعد ذلك على عهد «أرسطو» إلى التجربة والواقع.

«ثم ابتدأت تجربة أُخرى من جديد، فاعتبر الدين في القرون الوسطى مصدراً للمعرفة.. ثم جعل للعقل اعتباره ـ بدلاً من الدين ـ في عصر التنوير في القرن الثامن عشر.. ثم قوي الميل إلى اعتبار المعرفة الحِسِّية أو الوضعية وحدها ـ دون العقل والدين معاً ـ في القرن التاسع عشر.

«هذه دَوْرة ثلاثية لـ «اعتبار المعرفة» في تاريخ الإنسانية. فإذا كانت هذه الدَوْرة الثلاثية قانوناً لا يتخلف للمعرفة، أو بالأحرى لاعتبار مصدر المعرفة، فالمنتظر ـ بناء على سير التاريخ ـ أن يعود الاعتبار إلى الدين من جديد، بعد أن قويت موجة الواقعية أو الوضعية في القرن

---

(١) انظر: «الدين»، للدكتور محمد عبد الله دراز ص٨٤، ٨٥.

التاسع عشر. فتنكسر حدتها، فتضعف، فيقل اعتبارها، وعندئذ يعود الاعتبار في المعرفة للدين وحده» ـ كما قال أستاذنا الدكتور محمد البهي في كتابه القيم «الفكر الإسلامي الحديث»[1].

هذا هو منطق التاريخ الذي استخدمه «كومت» نفسه، ولكنه لم يستخدمه بإنصاف وتجرد وموضوعية كما هو منطق «العلمية» الذي ينادي به، بل كان في أكثره ـ كما يقول الأستاذ «فندلبند» في كتابه «تاريخ الفلسفة» ـ يقوم على الهوى، وعدم المعرفة، والحكم المغرض[2].

وهذا الذي ذكرناه مبني على افتراضنا التسليم بوجود أدوار تاريخية ثلاثة متعاقبة. والحقيقة أن هذه دعوى لم يقم عليها برهان صحيح، بل هي ـ في اعتمادها على التاريخ ـ تحرِّف التاريخ، وفي ادعائها الاعتماد على الواقع، تصادم الواقع.

وماذا يقول فيلسوف الوضعية في عصر ازدهار الحضارة الإسلامية، وفيه نرى الدين والعقل والعلم،

---

(١) «الفكر الإسلامي الحديث»، للدكتور محمد البهي ص٣٢٤ ـ ٣٢٥ ـ الطبعة الثانية. دار القلم ـ القاهرة.

(٢) المصدر السابق ص٣٢٣.

تنمو وتزدهر وترتقي كلها جنباً إلى جنب، فتجد الفقهاء والمفسِّرين والمحدِّثين والمتصوِّفة، وبجوارهم الفلاسفة والمتكلمين، وإلى جانبهم العلماء من الأطباء والكيميائيين والفلكيين والفيزيائيين والرياضيين.

بل ربما تجد الشخص الواحد يجمع النواحي الثلاثة في شخصه، كما يتضح ذلك في سيرة ابن رشد الحفيد، صاحب «بداية المجتهد ونهاية المقتصد» في الفقه الإسلامي المقارن، وأكبر شارح لفلسفة «أرسطو» في تلك العصور، وصاحب كتاب «الكليات» في الطب.

وكثير من علماء المسلمين التجريبيين كانوا فقهاء ومتصوِّفة.

وهذا ما وقع ويقع في تاريخ الأُمم كافة، إلى اليوم.

فنحن ما زلنا نسمع ونرى في كل عصر فريقاً يُقدِّس الروحانيات، وآخر مشغوفاً بالمعقولات الكلية والنظرة التجريدية، وغيرهما لا يعني إلا بالحوادث الجزئية ومعرفة ما بينها من ترابط وجودي.

والملحوظ أن الدور الأول ـ الذي يقولون إنه يتمثل في عصر ما قبل التاريخ وبدء العصر التاريخي ـ قد

اخترعت فيه صناعات عن طريق المشاهدة ومعرفة طبائع الأشياء . . .

وفي الدور الفلسفي ـ الذي يقال إنه شمل العصور القديمة ـ قد وُجِدت فيه مشاهدات فلكية ومدنيات شرقية، وعُرِفت هندسة «إقليدس»، وطب «أبقراط»، وطبيعيات «أرسطو»، وكيمياء العرب وفلكهم وطبهم وسائر علومهم التجريبية (كما ذكر لوبون وبريفولت وغيرهما).

وفي الدور الوضعي ـ الذي هو طابع العصور الحديثة فيما يقولون ـ توجد كثرة غفيرة من دعاة الدين والقِيَم الأخلاقية والتأمل الفلسفي[1].

بل نرى كثيراً من رجال العلم التجريبي ـ نفسه ـ وأقطابه في القرن العشرين يؤيدون ـ بأسلوب علمي ـ حقائق الدين وينادون في صدق واقتناع بوجوب العودة إلى الإيمان.

ونذكر من هؤلاء الأستاذ «كريس موريسون» رئيس أكاديمية العلوم في نيويورك وصاحب كتاب «الإنسان لا

(١) «أُسس الفلسفة» ص٢٠٩.

يقوم وحده» المعرَّب تحت عنوان «العلم يدعو إلى الإيمان».

ومنهم عالم النفس التجريبي الدكتور «هنري لنك» صاحب كتاب «العودة إلى الإيمان» الذي طُبع حوالي خمسين مرة في أمريكا وحدها.

ومنهم ثلاثون عالِماً أمريكياً في مختلف الاختصاصات، كتب كل واحد منهم مقالة يبيِّن بها كيف عرف الله واهتدى إليه بوساطة علمه. ومن هذه المقالات تكوَّن كتاب «الله يتجلَّى في عصر العلم» الذي نُقِل أيضاً إلى العربية.

فالواقع أن الحالات الثلاث التي يصوِّرها «كومت» لا تمثل أدواراً تاريخية متعاقبة، بل تمثل نزعات وتيَّارات متعاصرة في كل الشعوب، وليست متناقضة ولا متضادة بحيث إذا وُجِدت إحداها تنتفي الأُخرى.

بل نقول ما قال أستاذنا المرحوم الدكتور دراز: «إن هذه النزعات الثلاث متعاصرة متجاورة في نفس كل فرد، وإن لها وظائف يكمل بعضها بعضاً في إقامة الحياة الإنسانية على وجهها، ولكل واحدة منها مجال يوائمها. ففي الوقت الذي نفسِّر فيه الحوادث بأسبابها المباشرة خارجية وداخلية، فنقول: هلك فلان بضربة سيف، أو

لشيخوخة أو لمرض، لا يزال كل واحد منا يفسِّر الحوادث الشاذة الخارقة بالقضاء والقَدَر، أو بسبب غيبي مجهول»[1] ـ أي مع إيمانه بالعلم الوضعي الواقعي.

إن المعرفة العلمية الواقعية القائمة على تتبع الجزئيات وتسجيل الظواهر والعلاقات بينها، ليست هي قمة المعرفة الإنسانية، ولا غاية النضج البَشري.

فإن المعرفة العلمية التجريبية نفسها تحتاج إلى أساس فلسفي، فإن الفلسفة ـ بمعنى النظر في العلل والكليات وما وراء الظواهر والجزئيات ـ هي التي تقوم بتفسير الملاحظة والتجربة وغيرها من مقوِّمات العلم.. بل إن العلم نفسه ليس إلا حقيقة من الحقائق التي تعالجها الفلسفة في نظرية المعرفة: كيف يكون العلم ممكناً، وتحت أي ظروف نتصور هذا العلم، وما أدوات العلم وما طبيعته؟.. الخ، أي إننا نحتاج إلى «علم العلم»: إلى تحليل العقل وقوانينه. وهذه كلها موضوعات تدخل في مجال ما بعد الطبيعة[2].

---

(١) «الدين»: للدكتور محمد عبد الله دراز ـ مطابع دار الكتب ـ بيروت. ص٨٥ ـ ٨٦، وانظر: «أُسس الفلسفة»: للدكتور الطويل ص٢٠٨ ـ ٢٠٩.

(٢) انظر: «أُسس الفلسفة» ص٢٠٧ ـ ٢٠٩.

ومن هنا يقرر المرحوم الدكتور دراز[1] أن الأمر على عكس ما ذهب إليه «كومت» تماماً: أن النظرة الواقعية تقع في مبدأ الطريق لا في نهايته، وأنها تمثل مرحلة الطفولة النفسية، لا مرحلة النضج والكمال، ذلك بأن مبعثها الحاجة العاجلة وضرورة الحياة اليومية، وبأنها وظيفة الحس لا العقل، وبأنها من معدن القابلية والانفعال، لا من معدن الفاعلية والإنشاء.

أما نظرة التعليل بالمعاني العامة فإنها تنبثق في النفس على أثر ذلك، متى استيقظت ملكتا التجريد والتعميم في التصورات والأحكام، فلا يكتفي الذهن حينئذ بجمع الحوادث المترابطة في سلسلة متعاقبة، كما تُجْمَع الأعواد في الحزمة، بل يحاول ربطها برباط معنوي تدور في فلكه، ويكون كالسلك الداخلي الذي ينتظم حبَّات العِقد.

ونؤكد أن المعارف الإنسانية لا تستحق اسم العلم حتى تأخذ بنصيب قليل أو كثير من هذا التجريد والتعميم، الذي يضع كل مجموعة في نطاق يضبطها، تحت لقب مشترك يسهل به استحضارها ويكون لها بمثابة قانون كُلِّي تعلل به جزئياتها، بل العلوم الواقعية تسعى

---

(١) «الدين» ص٧٦ ـ ٨٧.

الآن جاهدة للاندماج برمتها في منظمة تنسقها وتُخضع جميع ظواهرها لناموس واحد، وهذا هو ما يسمى بمبدأ «وحدة الوجود» بمعناه العلمي (Monism Scientifique)، وسواء أبلغت العلوم هذا الهدف قريباً أو بعيداً أم لم تبلغه أبداً، فالذي لا شك فيه هو أن هذه النزعة إلى استنباط المعاني الكلية لم تفتر بل تزداد قوة.

بقيت النظرة الروحية أو الدينية، وواضح أنها لا تولد في النفس إلا حينما يتسع أُفقها. فتتجاوز الكون بظاهره وباطنه إلى ما وراءه، فهي أوسع النظرات مجالاً، وأبعدها مطلباً.

وهكذا ينقلب الترتيب الذي تخيَّله الفيلسوف رأساً على عقب، وتعود الحاجات النفسية الثلاث إلى أوضاعها الطبيعية المعقولة: حاجة الحس، فحاجة العقل، فحاجة الروح.. وإن شئت قلت: حاجة الحس، فحاجة العقل القانع، فحاجة العقل المتسامي.

«على أن الذي يعنينا هنا ليس هو الوضع التقويمي لكل واحدة من هذه النزعات، وإنما هو دخولها جميعاً في كيان النفس الإنسانية. فكما إننا لا نجد أمارة واحدة تدل على قرب زوال النزعة الاستقرائية أو النزعة التعليلية، كذلك لا نرى أمارة واحدة تشير إلى أن فكرة التدين ستزول عن الأرض قبل أن يزول الإنسان! يقول الفيلسوف الفرنسي

«سالمون ريناك» : ليس أمام الديانات مستقبل غير محدود فحسب، بل لنا أن نكون على يقين من أنه سيبقى شيء منها أبداً. ذلك لأنه سيبقى في الكون دائماً أسرار ومجاهيل، ولأن العلم لن يحقق مهمته على وجه الكمال»[١].

ويقول الدكتور «ماكس نوردوه» عن الشعور الديني: «هذا الإحساس أصيل يجده الإنسان غير المتمدين، كما يجده أعلى الناس تفكيراً، وأعظمهم حدساً، وستبقى الديانات ما بقيت الإنسانية، وستتطور بتطورها، وستتجاوب دائماً مع درجة الثقافة العقلية التي تبلغها الجماعة»[٢].

ويقول «أرنست رينان» في «تاريخ الأديان»: «إن من الممكن أن يضمحلّ كل شيء نحبه، وأن نبطل استعمال العقل والعلم والصناعة. ولكن يستحيل أن ينمحي التدين، بل سيبقى حُجَّة ناطقة على بطلان المذهب المادي، الذي يريد أن يحصر الفكر الإنساني في المضايق الدنيئة للحياة الأرضية»[٣].

* * *

---

(١) انظر: «الدين» ص٨٧.

(٢) راجع: مادة «دين» في «دائرة معارف القرن العشرين» للمرحوم محمد فريد وجدي.

(٣) المصدر السابق.

ملاحظة جديرة بالتنبيه

بقيت هنا ملاحظة جديرة بالتنبيه والتسجيل. وهي: أن إيمان «أوچست كومت» وأنصاره وأمثاله بالعلم وحده، ورفضهم للأفكار التي تأتي عن طريق «الفلسفة» و «الدين» إذا حللّنا دوافعه وظروفه التاريخية إنما يعني في الحقيقة أمرين:

● رفض تخرصات الفلسفة الميتافيزيقية:

الأول: رفض تخرصات الفلسفة الميتافيزيقية وتناقضاتها.

الفلسفة التي تطلب لنفسها الثقة والاعتبار العام فيما تذكره من أفكار وآراء عن الوجود، وهي التي شرّق فلاسفتها وغرّبوا، وبحثوا في كل شيء ولم يكادوا يتفقون على شيء. وهذه ـ في الواقع ـ هي حدود طاقة العقل البَشري، إذا سلك هذه المفازة ـ ما وراء الطبيعة ـ وحده، دون دليل من هَدْي الله ووحيه المعصوم.

وهذا ما جعل الفيلسوف الألماني الكبير «كانت» يُشبِّه العبارات «الميتافيزيقية» بأنها: «ورق نقد بدون

ضمان» وذلك ليبيِّن أن صنعة العقل الإنساني فيما بعد الطبيعة لا تأتي بيقين حقيقي، لأن العقل ـ إذا اجتاز مرحلة الإنسان ودائرته الحِسِّية إلى دائرة فوقها أعلى منها ـ لم يستطع أن يأتي إلا بالظن والتخمين. فالعقل ـ بحكم أنه محدد بالبيئة والمكان والزمان والثقافة الخاصة والجو الطبيعي والاجتماعي والسياسي ـ لا يملك أن يأتي بيقين عن الوجود المطلق غير المحدد بالمكان أو الزمان أو بشيء مما يُحدَّد به الإنسان[1]. فالموجود المحدود لا يستطيع أن يتصور غير المحدود، وكل ما يفعله أن يقيس وجوده على وجود نفسه، وذلك ظن، وليس بيقين. بل هو في الحقيقة قياس فاسد، إذ ليس ثمت جامع مشترك بين المقيس والمقيس عليه.

وما انتهى إليه «كانت» هو نفس ما انتهى إليه ـ أو إلى ما يشبهه أو يقرب منه ـ كثير من الفلاسفة والمفكرين قديماً وحديثاً، وهو الجانب الذي أطلق عليه المفكر العربي المعاصر الدكتور زكي نجيب محمود: «خرافة الميتافيزيقا»!!

---

(١) انظر: «الفكر الإسلامي الحديث» للدكتور محمد البهي ص٢٨٣، ٢٨٤.

بل إن هذا يشبه ما انتهى إليه جماعة من أئمة علم الكلام من المسلمين الذين خاضوا لجج العلوم العقلية، فلم يظفروا منها بطائل، حتى إن بعضهم تمنى في ختام عمره إيماناً كإيمان العجائز![١].

ومن أجل هذا قال أحد أساتذة الفلسفة[٢]: إن الفلسفة لا رأي لها، وذلك لأنها في مسائل ما وراء الطبيعة وما شابهها من القضايا الكبرى، تقول الشيء وضده، وتصدر الحكم ونقيضه، يعني: أن ما يقوله فيلسوف ينقضه آخر، وما يبيِّنه واحد يأتي آخر في عصره أو بعده فيهدمه من أساسه. وبهذا لا تستطيع الفلسفة البَشرية أن تعطي رأياً واحداً محدداً في قضية كبرى، فلا غرو أن يكون الوضعيون معذورين في موقفهم من الفلسفة الميتافيزيقية. وهذا هو وضعها.

* * *

---

(١) انظر: «أقسام اللَّذات»: للفخر الرازي، «والعقيدة النظامية»: لإمام الحرمين الجويني.

(٢) هو الأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود أستاذ الفلسفة بجامعة الأزهر وعميد كلية أُصول الدين (ثم وكيل الأزهر فوزير الأوقاف وشؤون الأزهر، فشيخ الأزهر أخيراً).

● المراد بالدين «دين الكنيسة الغربية»:

الأمر الثاني: إن رفض الدين والتنديد به إنما يراد به: دين الكنيسة الغربية حينذاك، وما تتبناه من أفكار يرفضها العقل، وينكرها العلم.. وهذا ما جعل عدداً من الفلاسفة يؤمنون بالله وبالدين، وينكرون - في الوقت نفسه - المسيحية، مسيحية البابا والكنيسة والكَهَنة[1].

وليس أدل على هذه الحقيقة من أن زعيم المذهب الوضعي الواقعي - أوچست كومت - نفسه، الذي كان يتنبأ بأن فناء الديانات سيكون هو النهاية الحتمية لتقدم

---

(١) انظر: «الفلسفة الخُلُقية.. نشأتها وتطورها»، للدكتور توفيق الطويل - الطبعة الثانية، ص٢٤٥، ٢٤٦، وفيه: أن «كومت» - رغم إعجابه بدعوة المسيحية إلى الإيثار والمحبة ومساعدة الضعفاء - أخذ عليها أنها جمدت والعالَم يجري في رِكاب العلم، إذ ارتبطت بالكاثوليكية التي تعثَّرت في مسايرة التقدم العقلي، ومتابعة ما تقتضيه مناهج البحث العلمي. ثم ما لبثت أن جمدت وتصدَّت - دفاعاً عن وجودها - لمقاومة التقدم وعرقلة سيره. ومن هنا نشأ النزاع الذي أتى على الأخلاق المسيحية، فراحت هذه ضحية الروح الكاثوليكية وجمودها. ومن أجل هذا انصرف «كومت» عن اتخاذ المسيحية أساساً للأخلاق الجديدة، وتطلَّع إلى إقامتها على أُسس علمية وضعية.

العلوم، قد عاد في آخر أمره متصوِّفاً عجيباً! وكلَّل حياته بوضع ديانة جديدة، معبودها الأكبر هو: «الإنسانية». وقد طبع هذه الديانة على غرار النظام الكَنسي للكاثوليكية، في عقائدها، وطقوسها، وأعيادها، وطبقات قساوستها. رواية كاملة أعاد فصولها ولم يغيِّر إلا أشخاصها!![1].

ولعلّ «كومت» وكبار مدرسته لو عرفوا حقيقة دين كالإسلام، اتسمت تصوراته وأخلاقه وأنظمته بالشمول والتوازن والإيجابية والواقعية، وفسح المجال للعقل والعلم إلى أبعد مدى، ما وجد نفسه محتاجاً إلى اختراع دين جديد، ولوجد في الإسلام ما ينشده وفوق ما ينشده[2].

ومهما يكن الأمر، فإن موقف «كومت» آخراً لشهادة ناطقة على أن الدين لم ينته دوره كما زعم، ولن ينتهي دوره ما بقي الإنسان.

---

(١) انظر: «الدين»، للدكتور دراز ص٩٤.

(٢) قلت هذا عن «أوچست كومت» ونشرته منذ سنوات، ولم أكن أعلم أن الرجل قرأ عن الإسلام بعض الشيء، واعترف له بالعلمية والواقعية، وهذا ما سجَّله المفكر العربي المسلم الدكتور رشدي فكَّار في بعض بحوثه. =

فالدين جزء أصيل من فِطرة الإنسان، وحاجة بَشرية حقيقية لا غِنى عنها. وربما أمكن الإنسان أن يستغني عن العلم، كالبدائيين من البَشر، ولكن لم نر جماعة في مكان ما أو زمان ما، استغنت عن الدين.

وقد نجد من الناس مَن يتمرد على الدين، ويثور على التدين، ولكنه في الواقع إنما يتمرد على الزيف والتحريف في الدين، إنما يثور على دين وضعي أو دين محرَّف منسوخ، كما وجدنا طبيب النفس الأمريكي الشهير الدكتور «هنري لنك»، مؤلف كتاب «العودة إلى الإيمان» الذي ثار على الكنيسة الغربية، ثم رجع إلى الدين بعد تجارب ومشاهدات ردَّته إلى رحابه، ولكنه في الواقع لم يعد إلى دينه القديم، كما حدَّثنا هو عن نفسه، بل عاد إلى دين فِطري هو عند التحليل أقرب ما يكون إلى عقيدة الإسلام[١].

فمن الخطل البيِّن القول بأن الدين قد وَلّى الأدبار، أو أصبح في خبر كان. فربما صَحَّ هذا القول بالنظر إلى أوروبا في القرن الثامن عشر أو التاسع عشر. أما القرن

---

(١) انظر: كتابنا «الإيمان والحياة» فصل «بين العلم والإيمان». وخصوصاً ما كتب تحت عنوان «الطب النفسي في موكب الإيمان».

العشرين، فيسوده اتجاه قوي للعودة إلى الإيمان، والرجوع إلى القيم الروحية، والهداية الإلهية التي جاء بها رُسُل الله.

إننا نرى رجلاً مثل «توينبي» ـ أكبر مؤرخي هذا العصر وأحد أقطاب الفكر العالمي ـ يقول عن نفسه: إنه من المؤمنين بأن الدين هو أهم ما في الوجود[1].

ويقول: «الدين إحدى المَلَكات الضرورية الطبيعية البَشرية. وحسبنا القول بأن افتقار المرء إلى الدين يدفعه إلى حالة من اليأس الروحي، تضطره إلى التماس العزاء الديني على موائد لا نملك منها شيئاً»[2].

ونجد كاتباً مطلعاً على الفكر العالَمي واتجاهاته المعاصرة مثل المرحوم عباس محمود العقاد، يحدِّثنا عن جمٍّ غفير من أنصار الإيمان، ودعاة الروح في كتابه «عقائد المفكرين في القرن العشرين».

وفي كتاب «الله يتجلَّى في عصر العلم» نجد ثلاثين عالماً أمريكياً في شتَّى تخصصات العلوم الكونية

---

(١) «مختصر دراسة للتاريخ»: ٣/ ١٧٣.
(٢) نفس المصدر السابق: ٣/ ١٧٩.

والرياضية وغيرها، يكتبون ـ من خلال علومهم ـ مؤيدين للإيمان.

وينقل أحد هؤلاء عن العالم الطبيعي والكاتب اللامع «أوليفر وندل» قوله: «كلما تقدَّمت العلوم ضاقت بينها وبين الدين شقة الخلاف، فالفهم الحقيقي للعلوم يدعو إلى زيادة الإيمان بالله»[١].

* * *

---

(١) «الله يتجلى في عصر العلم» ص٥٢.

حاجة الإنسان إلى الدين

إن حاجة الإنسان إلى الدين ليست حاجة ثانوية ولا هامشية، إنها حاجة أساسية أصيلة، تتصل بجوهر الحياة، وسر الوجود، وأعمق أعماق الإنسان.

وفي أقصى ما يمكن من الإيجاز ـ غير المخل ـ نبين هنا وجه الحاجة إلى الدين في حياة الإنسان:

١ ـ حاجة العقل إلى معرفة الحقائق الكبرى في الوجود:

حاجة الإنسان إلى عقيدة دينية تنبثق ـ أول ما تنبثق ـ من حاجته إلى معرفة نفسه ومعرفة الوجود الكبير من حوله. أي إلى معرفة الجواب عن الأسئلة التي شغلت بها فلسفات البَشر ولم تقل فيها ما يشفي.

فالإنسان منذ نشأته تلح عليه أسئلة يحتاج إلى الجواب عنها: من أين؟ وإلى أين؟ ولِمَ؟! ومهما تشغله مطالب العيش من هذا التساؤل، فإنه لا بدّ واقف يوماً ليسأل نفسه هذه الأسئلة الخالدة:

(أ) يقول الإنسان في نفسه: من أين جئتُ وجاء

هذا الكون العريض من حولي؟ هل وُجِدتُ وحدي أم هناك خالق أوجدني؟ ومَن هو؟ وما صلَتي به؟ وكذلك هذا العالَم الكبير بأرضه وسمائه، وحيوانه ونباته وجماده وأفلاكه. هل وُجِد وحده أو أوجده خالق مُدبِّر؟

(ب) ثم ماذا بعد هذه الحياة.. وبعد الموت؟ إلى أين المسير بعد هذه الرحلة القصيرة على ظهر هذا الكوكب الأرضي؟ أتكون قصة الحياة مجرد «أرحام تدفع، وأرض تبلع» ولا شيء بعد ذلك؟ وكيف تستوي نهاية الأخيار الطاهرين الذين ضَحّوا بأنفسهم في سبيل الحق والخير ونهاية الأشرار الملوثين الذين ضَحّوا بغيرهم في سبيل الهوى والشهوة؟ أتختتم الحياة بالموت؟.. أم هناك وراء الموت حياة يُجزَى فيها الذين أساؤوا بما عملوا والذين أحسنوا بالحُسْنى؟

(ج) ثم لماذا وُجِد الإنسان؟ لماذا أُعطي العقل والإرادة وتميَّز عن سائر الحيوان؟ لماذا سُخِّر له ما في السماوات وما في الأرض؟ أهناك غاية من وجوده؟ أله مهمة في حياته؟ أم وُجِد لمجرد أن يأكل كما تأكل الأنعام ـ ثم ينفق كما تنفق الدواب؟ وإن كانت هناك غاية من وجوده فما هي؟ وكيف يعرفها؟

أسئلة تلح على الإنسان في كل عصر، وتتطلب الجواب الذي يشفي الغليل ويطمئن به القلب، ولا سبيل

إلى الجواب الشافي إلا باللُّجوء إلى الدين. . إلى العقيدة الدينية الصافية. الدين هو الذي يُعرِّف الإنسان ـ أول ما يعرِّفه ـ أنه لم يخرج من العدم إلى الوجود صدفة، ولا قام في هذا الكون وحده، وإنما هو مخلوق لخالق عظيم، هو ربه الذي خلقه فسوَّاه فعدله، ونفخ فيه من روحه، وجعل له السمع والبصر والفؤاد، وأمدَّه بنعمه الغامرة، منذ كان جنيناً في بطن أُمه: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝٢١ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢٢ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ۝٢٣﴾[1].

وهذا الكون الكبير من حوله ليس غريباً عنه ولا عدواً له. إنه مخلوق مثله لله لا يسير جزافاً ولا يمشي اعتباطاً، كل شيء فيه بقَدَر، وكل أمر فيه بحساب وميزان. إنه نعمة من الله للإنسان ورحمة. ينعم بخيراته، ويستفيد من بركاته، ويتأمل في آياته، فيستدل به عن ربـــــه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾[2]. ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠﴾[3].

---

(١) سورة المرسلات: الآيات ٢٠ ـ ٢٣.
(٢) سورة الأعلى: الآيات ٢ ـ ٣.
(٣) سورة آل عمران: الآية ١٩٠.

بهذه العقيدة يرتبط الإنسان بالوجود الكبير، وبرب الوجود كله، ولا يعيش منطوياً على نفسه، معزولاً عما حوله، أو خائفاً منه.

والدين هو الذي يُعرِّف الإنسان: إلى أين يسير بعد الحياة والموت؟ إنه يُعرِّفه أن الموت ليس فناءً محضاً، ولا عدماً صرفاً، إنما هو انتقال إلى مرحلة أُخرى.. إلى حياة برزخية بعدها نشأة أُخرى تُؤتَى فيها كل نفس بما كسبت، وتخلد فيما عملت، فلا يضيع هناك عمل عامل من ذكر أو أُنثى، ولا يفلت من العدل الإلهي جبار أو مستكبر: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾[1].. بهذا يعيش الإنسان بوجدانه في الخلود، ويعلم أنه خلق للأبد، وإنما ينتقل بالموت من دار إلى دار.

والدين هو الذي يُعرِّف الإنسان: لماذا خُلِق؟ ولماذا كُرِّم وفُضِّل؟ يُعرِّفه بغاية وجوده، ومهمته فيه. إنه لم يُخلق عبثاً، ولم يُترك سدىً، إنه خُلق ليكون خليفة في الأرض، يعمرها كما أمر الله، ويُسخِّرها لما يحب الله، يكشف عن مكنوناتها، ويأكل من طيباتها،

---

(١) سورة الزلزلة: الآيات ٦ ـ ٨.

غير طاغٍ على حق غيره، ولا ناسٍ حق ربه. وأول حقوق ربه عليه أن يعبده وحده، ولا يُشرك به شيئاً، وأن يعبده بما شرع على ألسنة رُسُله، الذين بعثهم إليه هداة معلمين مبشرين ومنذرين، فإذا أدّى مهمته في هذه الدار المحفوفة بالتكليف والابتلاء، وجد جزاءه هناك في الدار الآخرة: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾[1].

بهذا يدرك الإنسان سر وجوده، ويستبين مهمته في الحياة، بيّنها له بارئ الكون، وواهب الحياة، وخالق الإنسان.

إن الذي يعيش بغير دين - بغير عقيدة في الله والآخرة - إنسان شقي محروم حقاً. إنه في نظر نفسه مخلوق حيواني. ولا يفترق عن الحيوانات الكبيرة التي تدب على الأرض من حوله... والتي تعيش وتتمتع ثم تموت وتنفق، بدون أن تعرف لها هدفاً، أو تدرك لحياتها سراً. إنه مخلوق صغير تافه لا وزن له ولا قيمة، وُجِد ولا يعرف كيف وُجِد، ولا مَن أوجده؟ ويعيش ولا يدري لماذا يعيش؟ ويموت ولا يعلم لماذا يموت؟ وماذا بعد الموت؟ إنه في شك - بل في عمى - من أمره كله: محياه ومماته،

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٣٠.

مبدئه ومنتهاه، كالذين قال الله فيهم: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ٦٦﴾[1].

وما أقسى حياة إنسان يعيش في جحيم الشك والحيرة أو في ظلمات العمى والجهل، في أخص ما يخصه: في حقيقة نفسه، وسر وجوده، وغاية حياته. إنه الشقي التعيس حقاً، وإن غرق في الذهب والحرير وأسباب الرفاهية والنعيم، وحمل أرقى الشهادات، وتسلَّم أعلى الدرجات! وفرق كبير بين إنسان كعمر الخيَّام يقول في حال حيرته وشكه:

لبستُ ثوب العمر لم أُستشر
وحِرتُ فيه بين شتَّى الفكر!
وسوف أنضو الثوب عني، ولم
أدر: لماذا جئتُ، أين المفر؟

وبين آخر يقول في يقين وطمأنينة:

وما الموت إلا رحلة، غير أنها
من المنزل الفاني إلى المنزل الباقي

ويقول عمر بن عبد العزيز: «إننا خُلِقنا للأبد، وإنما نُنقَل من دار إلى دار».

---

(١) سورة النمل: الآية ٦٦.

إن حاجة الإنسان إلى الدين تنبثق ـ قبل كل شيء ـ من حاجته إلى معرفة حقيقة نفسه وإلى معرفة حقائق الوجود الكبرى. وأول هذه الحقائق وأعظمها وجود الله تعالى ووحدانيته وكماله سبحانه. فبمعرفته والإيمان به ـ جلَّ شأنه ـ تنحل عقد الوجود، ويتضح للإنسان الغاية والوجهة، ويتحدد المنهج والطريق.

* * *

٢ ـ حاجة الفِطرة البَشرية:

ما ذكرناه من حاجة الإنسان إلى الدين يتصل بحاجاته العقلية. ولكن هناك حاجة الوجدان والشعور أيضاً. فالإنسان ليس عقلاً فقط، كالأدمغة الألكترونية. إنما هو عقل ووجدان وروح. هكذا تكوَّنت فِطرته، ونطقت جبلته. فالإنسان بفطرته لا يقنعه علم ولا ثقافة، ولا يشبع نهمته فن ولا أدب، ولا يملأ فراغ نفسه زينة أو متعة، ويظل قلق النفس، جوعان الروح، ظمآن الفطرة، وشاعراً بالفراغ والنقص، حتى يجد العقيدة في الله، فيطمئن بعد قلق، ويسكن بعد اضطراب، ويأمن بعد خوف، ويحس بأنه وجد نفسه.

يقول الفيلسوف «أچوست سياتيه» في كتابه «فلسفة

الأديان»[1]: «لماذا أنا متدين؟ إني لم أُحرّك شفتي بهذا السؤال مرة، إلا وأراني مسوقاً للإجابة عليه بهذا الجواب، وهو: أنا متدين، لأني لا أستطيع خلاف ذلك، لأن التدين لازم معنوي من لوازم ذاتي. يقولون لي: ذلك له أثر من آثار الوراثة أو التربية أو المزاج، فأقول لهم: قد اعترضتُ عليَّ نفسي كثيراً بهذا الاعتراض نفسه، ولكني وجدته يقهقر المسألة ولا يحلها».

ولا عجب أن وجدنا هذه العقيدة عند كل الأُمم، بدائية ومتحضرة، وفي كل القارات شرقية وغربية، وفي كل العصور قديمة وحديثة، وإن كان الأكثرون قد انحرفوا بها عن الصراط المستقيم.

يقول المؤرخ الإغريقي «بلوتارك»: «قد وُجِدت في التاريخ مدن بلا حصون، ومدن بلا قصور، ومدن بلا مدارس، ولكن لم توجد أبداً مدن بلا معابد». . .

ولهذا جعل القرآن الدين ـ بمعنى العقيدة ـ هو الفِطرة البَشرية نفسها: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾[2].

* * *

---

(١) «الإسلام في عصر العلم»، للمرحوم محمد فريد وجدي.

(٢) سورة الروم: الآية ٣٠.

٣ ـ حاجة الإنسان إلى الصحة النفسية والقوة الروحية:

وثمت حاجة أُخرى إلى الدين: حاجة تقتضيها حياة الإنسان وآماله فيها: وآلامه بها.. حاجة الإنسان إلى ركن شديد يأوي إليه، وإلى سناد متين يعتمد عليه، إذا أَلَّمت به الشدائد، وحلَّت بساحته الكوارث، ففقد ما يحب، أو واجه ما يكره، أو خاب ما يرجو، أو وقع به ما يخاف. هنا تأتي العقيدة الدينية، فتمنحه القوة عند الضعف، والأمل في ساعة اليأس، والرجاء في لحظة الخوف، والصبر في البأساء والضرَّاء، وحين البأس.

إن العقيدة في الله وفي عدله ورحمته، وفي العوض والجزاء عنده في دار الخلود، تهب الإنسان الصحة النفسية والقوة الروحية، فتشع في كيانه البهجة، ويغمر روحه التفاؤل، وتتسع في عينه دائرة الوجود، وينظر إلى الحياة بمنظار مشرق، ويهون عليه ما يلقى وما يكابد في حياته القصيرة الفانية، ويجد من العزاء والرجاء والسكينة ما لا يقوم مقامه، ولا يغني عنه علم ولا فلسفة، ولا مال ولا ولد، ولا مُلْك المشرق والمغرب.

ورضي الله عن عمر إذ قال: «ما أصبتُ بمصيبة إلا كان لله عليّ فيها أربع نِعَم: أنها لم تكن في ديني...

وأنها لم تكن أكبر منها. . . وأنني لم أُحرم الرضا عند نزولها. . . وأنني أرجو ثواب الله عليها»[١].

أما الذي يعيش في دنياه بغير دين، بغير إيمان، يرجع إليه في أُموره كلها ـ وبخاصة إذا ادلهمت الخطوب، وتتابعت الكروب، والتبست على الناس المسالك والدروب ـ يستفتيه فيفتيه، ويسأله فيجيبه، ويستعينه فيعينه، ويمنحه المدد الذي لا يُغْلَب، والعون الذي لا ينقطع ـ الذي يعيش بغير هذا الإيمان ـ يعيش مضطرب النفس، متحير الفكر، مبلبل الاتجاه، ممزَّق الكيان، شبَّهه بعض فلاسفة الأخلاق بحال «رافاياك» التعس. الذي يحكون عنه أنه اغتال الملك، فكان جزاؤه أن يُربط من يديه ورجليه إلى أربعة من الجياد، ثم أُلهب ظهر كل منها، لتتجه مسرعة إلى جهة من الجهات الأربع، حتى مُزِّق جسمه شر مُمزَّق!

هذا التمزق الجسمي البشع مثل للتمزق النفسي الذي يعانيه مَنْ يحيا بغير دين، ولعل الثاني أقسى من

---

(١) انظر موضوع (الثبات في الشدائد) من كتابنا «الإيمان والحياة»، وكذلك موضوع (القوة) ـ طبع ـ مؤسسة الرسالة ببيروت، ومكتبة وهبة بالقاهرة.

الأول وأنكى في نظر العارفين المتعمقين، لأنه تمزق لا ينتهي أثره في لحظات، بل هو عذاب يطول مداه، ويلازم مَن نُكِب به طول الحياة.

ولهذا نرى الذين يعيشون بغير عقيدة راسخة يتعرَّضون أكثر من غيرهم للقلق النفسي، والتوتر العصبي، والاضطراب الذهني، وهم ينهارون بسرعة إذا صدمتهم نكبات الحياة، فإما انتحروا انتحاراً سريعاً، وإما عاشوا مرضى النفوس، أمواتاً كالأحياء! على نحو ما قال الشاعر العربي قديماً:

ليس مَن مات فاستراح بميت
إنما الميت ميت الأحياء!
إنما الميت مَن يعيش كئيباً
كاسفاً باله قليل الرجاء!

وهذا ما يقرره علماء النفس وأطباء العلاج النفسي في العصر الحديث. وهو ما سجَّله المفكرون والنُقَّاد في العالَم كله.

يقول المؤرخ الفيلسوف «أرنولد توينبي»:

«الدين إحدى المَلَكات الضرورية الطبيعية البَشرية، وحسبنا القول بأن افتقار المرء للدين يدفعه إلى حالة من

اليأس الروحي، تضطره إلى التماس العزاء الديني على موائد لا تملك منه شيئاً»[1].

ويقول الدكتور «كارل بانج» في كتابه «الإنسان العصري يبحث عن نفسه»: «إن كل المرضى الذين استشاروني خلال الثلاثين سنة الماضية، من كل أنحاء العالَم، كان سبب مرضهم هو نقص إيمانهم، وتزعزع عقائدهم، ولم ينالوا الشفاء إلا بعد أن استعادوا إيمانهم»[2].

ويقول «وليم چيمس» فيلسوف المنفعة والذرائع: «إن أعظم علاج للقلق ـ ولا شك ـ هو الإيمان».

ويقول الدكتور «بريال»: «إن المرء المتدين حقاً لا يعاني قَط مرضاً نفسياً».

ويقول «ديل كارنيجي» في كتابه «دع القلق وابدأ الحياة»: «إن أطباء النفس يدركون أن الإيمان القوي والاستمساك بالدين، كفيلان بأن يقهرا القلق والتوتر العصبي، وأن يشفيا من هذه الأمراض».

وقد أفاض الدكتور «هنري لنك» في كتابه «العودة

---

(١) «مختصر دراسة التاريخ»: ٣/ ١٧٩.

(٢) انظر: «كتاب الإسلام يتحدى»، ص٢٨١.

إلى الإيمان» في بيان ذلك والتدليل عليه بما لمسه وجرَّبه من وقائع وفيرة، خلال عمله في العلاج النفسي[1].

* * *

٤ ـ حاجة المجتمع إلى بواعث وضوابط أخلاقية:

وهناك حاجة أُخرى إلى الدين: حاجة اجتماعية، إنها حاجة المجتمع إلى بواعث وضوابط: بواعث تدفع أفراده إلى عمل الخير، وأداء الواجب وإن لم يوجد من البَشر مَن يراقبهم، أو يكافئهم.. وضوابط تحكم علاقاتهم، وتُلزم كل واحد منهم أن يقف عند حده، ولا يعتدي على حق غيره أو يُفرِّط في خير مجتمعه، من أجل شهوات نفسه، أو منفعته المادية العاجلة.

ولا يقال: إن القوانين واللَّوائح كافية لإيجاد هذه الضوابط وتلك البواعث، فإن القوانين لا تخلق باعثاً، ولا تكفي ضابطاً، فإن الإفلات منها ممكن، والاحتيال عليها ميسور، ولهذا كان لا بدّ من بواعث وضوابط

---

(١) انظر: فصل (بين العلم والإيمان) من كتابنا «الإيمان والحياة» وبخاصة ما كُتِب تحت عنوان: (الطب النفسي في موكب الإيمان).

أخلاقية، تعمل من داخل النفس الإنسانية لا من خارجها. لا بدّ من هذا الباعث الداخلي، ومن هذا: الوازع الذاتي، لا بد من «الضمير»، أو «الوجدان» أو «القلب»، سمه ما شئت ـ فهو القوة التي إذا صلحت صلح عمل الإنسان كله، وإذا فسدت فسد كله.

ولقد عرف الناس بالمشاهدة والتجربة واستقراء التاريخ، أن العقيدة الدينية لا يغني غناءها شيء في تربية الضمير وتزكية الأخلاق، وتكوين البواعث التي تحفز على الخير، والضوابط التي تردع عن الشر، حتى قال بعض قضاة العصر في بريطانيا ـ وقد هاله ما رأى من جرائم موبقة، رغم تقدم العلم، واتساع الثقافة، ودقة القوانين ـ: «بدون أخلاق لا يوجد قانون، وبدون إيمان لا توجد أخلاق»[1].

ولا غرو أن أعترف بعض الملاحدة أنفسهم بأن الحياة لا تستقيم بدون دين، بدون عقيدة في الله وفي الجزاء في الآخرة، حتى قال «ڤولتير»: «لو لم يكن الله موجوداً لوجب علينا أن نخلقه»! أي نخترع للناس إلهاً

---

(١) انظر: فصل (الإيمان والأخلاق) من كتابنا: «الإيمان والحياة» ـ طبع مؤسسة الرسالة ببيروت، ومكتبة وهبة بالقاهرة.

يرجون رحمته ويخافون عذابه، ويلتمسون رضاءه فيعملون الصالحات، ويتجنبون السيئات.

ويقول مرة أخرى ساخراً: «لِمَ تشككون في وجود الله، ولولاه لخانتني زوجتي، وسرقني خادمي»!!

وقال «بلوتارك»: «إن مدينة بلا أرض تقوم عليها، أسهل من قيام دولة بلا إله»!!

* * *

● شهادة التاريخ والواقع:

إن تجارب التاريخ وتجارب الواقع كلها تنطق بأصالة الإيمان في الحياة، وضرورته للإنسان، فهو ضرورة للفرد ليطمئن ويسعد ويزكو، وهو ضرورة للمجتمع ليستقر ويتماسك ويرقى.

يقول الأستاذ العقّاد: «إن تجارب التاريخ تقرر لنا أصالة الدين في جميع حركات التاريخ الكبرى، ولا تسمح لأحد أن يزعم أن العقيدة الدينية شيء تستطيع الجماعة أن تلغيه، ويستطيع الفرد أن يستغني عنه، في علاقته بتلك الجماعة، أو فيما بينه وبين سريرته المطوية من حوله، ولو كانوا من أقرب الناس إليه.

«ويقرر لنا التاريخ أنه لم يكن قط لعامل من عوامل

الحركات الإنسانية أثر أقوى وأعظم من عامل الدين، وكل ما عداه من العوامل الأخرى في حركات الأُمم، فإنها تتفاوت فيه القوة بمقدار ما بينه وبين العقيدة الدينية من المشابهة في التمكن من أصالة الشعور وبواطن السريرة.

«هذه القوة لا تضارعها قوة العصبية ولا قوة الوطنية ولا قوة العُرف، ولا قوة الأخلاق، ولا قوة الشرائع والقوانين، إذ كانت هذه القوة إنما ترتبط بالعلاقة بين المرء ووطنه، أو العلاقة بينه وبين مجتمعه، أو العلاقة بينه وبين نوعه، على تعدد الأوطان والأقوام.

«أما الدين فمرجعه إلى العلاقة بين المرء وبين الوجود بأسره، وميدانه يتسع لكل ما في الوجود من ظاهر وباطن، ومن علانية وسر، ومن ماض أو مصير، إلى غير نهاية، بين آزال لا تحصى في القِدَم، وآباد لا تُحصَى فيما ينكشف عنه عالَم الغيوب. وهذا على الأقل هو ميدان العقيدة الدينية في مثلها الأعلى، وغاياتها القصوى، وإن لم تستوعبها ضمائر المتدينين في جميع العصور.

«ومن أدلة الواقع على أصالة الدين: أنك تلمس هذه الأصالة عند المقابلة بين الجماعة المتدينة، والجماعة

التي لا دين لها، أو لا تعتصم من الدين بركن مكين.

«وكذلك تلمس هذه الأصالة عند المقابلة بين فرد يؤمن بعقيدة من العقائد الشاملة، وفرد معطَّل الضمير، مضطرب الشعور، يمضي في الحياة بغير محور يلوذ به، وبغير رجاء يسمو إليه.

«لهذا . . الفارق بين الجماعتين، وبين الفردين، كالفارق بين شجرة راسخة في منبتها وشجرة مجتثة من أُصولها»!

«وقَلَّ أن ترى إنساناً معطَّل الضمير، على شيء من القوة والعظمة، إلا أمكنك أن تتخيله أقوى من ذلك وأعظم، إذا حلَّت العقيدة في وجدانه محل التعطل والحيرة»[1].

* * *

(١) «حقائق الإسلام وأباطيل خصومه» ص١٥ ـ ١٦.

لا بديل عن الدين

ومن الناس مَن يتصور إمكان الاستغناء عن الدين بالعلم الحديث حيناً، أو المذاهب الفكرية «الأيديولوچيات» الحديثة حيناً آخر.

وكلا التصورين خطأ.

فقد بيَّن الواقع الناطق أنه لا شيء يغني عن الدين، ويقوم بديلاً عنه في أداء رسالته الضخمة في حياة الإنسان.

● العلم ليس بديلاً عن الدين:

أما العلم فليس بديلاً عن الدين والإيمان بحال. فإن مجال العلم غير مجال الدين. وأريد بـ «العلم» هنا العلم بمفهومه الغربي المحدود، لا بمفهومه الإسلامي الشامل. الذي يشمل العلم بالظواهر الجزئية للكون، والعلم بحقائق الوجود الكبرى. أي ما يشمل علم الدنيا، وعلم الدين. فليس هو علم المادة وخواصها فحسب، بل العلم المتعلق بالكون والحياة والإنسان، وخالقها سبحانه.

العلم بالمفهوم الغربي لا يصلح بديلاً عن الدين، لأن مهمة هذا العلم أن يُيسّر للإنسان أسباب الحياة، لا أن يُفسّر له ألغازها. العلم يعين الإنسان على حل مشكلة العيش، ولكن لا يعينه على حل مشكلة الوجود وقضاياه الكبرى.

ولهذا نرى أعظم البلاد في عصرنا تقدماً في العلم، وأخذاً بأسبابه، يشكو أهلها من الفراغ الروحي، والقلق النفسي، والاضطراب الفكري، والشعور الدائم بالتفاهة والاكتئاب والضياع. ونرى شبابها ينقلبون بين شتّى البِدع الفكرية والسلوكية، ثائرين على آلية الحياة، ومادية الحضارة، وإن لم يهتدوا إلى المنهج السليم، والصراط المستقيم.

وهذا هو سر العوج والشذوذ والانحرافات، التي لمسها العالم كله في سلوك أُولئك الشباب الحائرين، الذين يسمونهم «الخنافس» أو «الهيبيين» وأشباههم ممن ضاق ذرعهم بتفاهة العيش، وتمردوا على حضارة الغرب وإن نشأوا بين أحضانها.

إن العلم الحديث محدود الوسع، محدود القُدرة، محدود المجال.

في وسع العلم أن يمنح الإنسان الوسائل والآلات، ولكن ليس في وسعه ولا من اختصاصه أن يمنحه الأهداف والغايات، وما أتعس الإنسان إذا تكدَّست لديه الوسائل دون أن يعرف لنفسه هدفاً ولا لحياته قيمة، إلا أهداف السباع في العدوان، أو أهداف البهائم في الأكل والسفاد، أما هدف رفيع يليق بمواهب الإنسان، وخصائص الإنسان، وكرامة الإنسان، فلا.

إن الدين وحده هو الذي يمنح الإنسان أهدافاً عليا للحياة، وغايات كبرى للوجود، ويجعل له فيه مهمة ورسالة، ولحياته قيمة واعتباراً، كما يمنحه القِيَم الخُلُقية والمُثُل العليا التي تحبسه عن الشر، وتحفزه على الخير، لغير منفعة مادية عاجلة.

لقد أعطى العلم الإنسان جناحي طائر فحلَّق في الفضاء، وأعطاه خياشيم حوت فغاص في أعماق الماء، ولكنه لم يعطه قلب إنسان!

وحين يعيش الإنسان في الحياة بغير «قلب الإنسان» تستحيل أدوات العلم في يديه إلى مخالب وأنياب تقتل وتُرهب، وإلى معاول وألغام تنسف وتُدمِّر.

تستحيل أدوات العلم إلى أسلحة نووية، وقنابل

نابالم، وغازات سامة، وأسلحة كيماوية وجرثومية تنشر الموت والخراب عند استعمالها، وتشيع الذعر والخوف قبل استعمالها[1].

أجل.. قد استطاع العلم أن يضع قدم الإنسان على سطح القمر، ولكنه لم يملك أن يضع يده على سر وجوده وغاية حياته!

لقد اكتشف الإنسان بالعلم «أشياء» كثيرة. ولكنه لم يكتشف حقيقة نفسه! أوصله علم القرن العشرين إلى القمر. ولكن لم يوصله إلى السعادة والطمأنينة على ظهر الأرض! جلب من هناك بعض الصخور والأتربة، ولكنه لم يجد هناك ما يخرجه من التعاسة والقلق والضياع في كوكبه!

أصلح العلم ظاهر الإنسان، وعجز عن إصلاح باطنه، لم يستطع أن ينفذ إلى تلك «اللَّطيفة الربَّانية» المدركة الواعية، الشاعرة الحسَّاسة، التي إذا صلحت

---

(١) انظر: كتاب «الأسلحة الكيماوية والجرثومية» تأليف الدكتور نبيل صبحي، لترى ما يحضّره أعداء الإنسانية لإفناء الأحياء بسلطان العلم ومقدرة العلماء!! نشرته مؤسسة الرسالة ببيروت.

صلح الإنسان كله، وإذا فسدت فسد الإنسان كله، ألا وهي القلب، أو النفس، أو الروح، سمها ما شئتَ، فهي حقيقة الإنسان!

أعطى العلم إنسان القرن العشرين سلاحاً انتصر به على بعض قُوَى الطبيعة، ولم يعطه ما ينتصر به على نفسه: على شهواته، وشكه، وقلقه، وخوفه، وتخبطه، وصراعه الداخلي والاجتماعي.

لقد تقدَّم الطب الحديث والجراحة إلى أقصى حدودهما في هذا القرن، وبدأ الأطباء يقولون: إن العلم يستطيع القضاء على كل مرض غير الموت والشيخوخة!! ولكن الأمراض تكثر وتتشعب وتنتشر بسرعة مذهلة، ومنها «الأمراض العصبية» و «النفسية» التي هي نتائج وأعراض «التناقض» الشديد الذي يمر به الفرد والمجتمع.

لقد حاول العلم الحديث أن يُغَذِّي كل الجوانب المادية في الجسم الإنساني، ولكنه فشل في تغذية الشعور والأماني والإرادة. . . وكانت حصيلة ذلك جسماً طويل القامة، ممتلئ النواحي، ولكن الجانب الآخر من الجسم ـ وهو أصل الإنسان ـ أصبح يعاني من أزمات لا حدَّ لها.

لقد أكَّدت إحصائية: أن ثمانين في المائة (٨٠٪) من مرضى المدن الأمريكية الكبرى يعانون أمراضاً ناتجة عن الأعصاب من ناحية أو أُخرى، ويقول علم النفس الحديث: إن من أهم جذور هذه الأمراض النفسية: الكراهية والحقد والجريمة والإرهاق واليأس والترقب والشك والأثرة والإنزعاج من البيئة. وكل هذه الأعراض تتعلق مباشرة بالحياة المحرومة من الإيمان بالله.

إن هذا الإيمان بالله يمنح الإنسان يقيناً جبّاراً حتى يستطيع مواجهة أعتى المشكلات والصعاب، فهو يجاهد في سبيل هدف سام أعلى، ويغض بصره عن الأهداف الدنيئة القذرة.

إن الإيمان بالله يعطي الإنسان «محرّكاً» هو أساس سائر الأخلاق الطيبة ومصدر قوة العقيدة... العقيدة التي عبّر عنها السير «وليام أوسلر» بقوله: إنها قوة محرّكة عظيمة، لا توزن بأي ميزان، ولا يمكن تجربتها في المعامل.

إن هذه العقيدة هي سر مخزن الصحة الموفورة التي يتمتع بها أصحابها. وأية نفسية محرومة من هذه العقيدة لن تنتهي إلا بالأمراض أقساها وأعتاها.

ومن شقوة الإنسان أن علماء النفس يبذلون كل ما يمكنهم من الجهود في الكشف عن أمراض نفسية وعصبية جديدة، ولكنهم في نفس الوقت يهملون بذل الجهود للوصول إلى علاج هذه الأمراض، وهذه الظاهرة تثير شعوراً كئيباً بأن هؤلاء العلماء قد أخفقوا في الميدان الأخير، ولذلك أكبُّوا على الميدان الثاني يسترون خيبتهم ويُظهرون بطولتهم أمام العالم!

وإلى ذلك أشار أحد العلماء المسيحيين قائلاً: إن علماء الطب النفسي يبذلون كل جهودهم في كشف أسرار «القفل» الدقيقة الذي سوف يغلق علينا كل أبواب الصحة!

فالمجتمع الجديد يسير في اتجاهين في وقت واحد، فهو يحاول من جهة الحصول على جميع الكمالات المادية، على حين يتسبب ـ لتركه الدين ـ في خلق أحوال تجعل من الحياة جحيماً، إنه يعطيك دواء الشفاء من الفم، ويحقنك السم في العضل!![1].

* * *

(١) عن كتاب «الإسلام يتحدى»، تأليف: وحيد الدين خان، تعريب: مظفر الإسلام خان، ص٢٧٧ ـ ٢٧٩.

● **الأيديولوچيات الحديثة لا تغني عن الدين:**

وإذا كان العلم لا يصلح قَط بديلاً عن الدين، فمثله المذاهب الفكرية الوضعية «الأيديولوچيات» التي أصبح لها في عصرنا دعاتها ومبشروها. فهي لا تستطيع أبداً أن تقوم مقام الدين. وهذا أحد الخبراء العالمين بالمذاهب والحضارات يحدثنا عن ذلك. فلنستمع إليه.

يقول «أرنولد توينبي» في كتابه «العادة والتغيير»:

«إن من الخصائص الأساسية للإنسان «الإدراك».. إدراك وجوده.. وإدراك العالَم المحيط به.. سواء من البَشر أو العالَم المادي وغير المادي.. وهذا الإدراك هو ما جعل الإنسان مختاراً في تصرفاته، ذا إرادة فيما يتخذ من قرارات.. فقد قاده هذا الإدراك إلى اكتشاف أنه لا يعلم عن العالَم الذي يعيش فيه إلا القليل من القشور.. وأن هذا القليل الذي يعرفه لا يستطيع أن يُفسِّر له سر الحياة والكون. ولقد أدرك أن الكلمة الأخيرة في مصيره ليست في متناوله.. ولكنها مِلْك قوى قاهرة، عليه أن يتعرَّف عليها، وأن يعيش متوافقاً معها متصلاً بها.

وحيث إن التدين جزء من الطبيعة البَشرية.. وحيث إن الإنسان لا يستطيع أن يعيش دون دين من نوع ما.. فلقد ترتب على تراجع الدين عن موقعه في أوروبا

أن قامت ديانات بديلة تسمى: المذاهب الفكرية، أو «الأيديولوچيات» الفردية أو الرأسمالية، والجَماعية أو الشيوعية، والوطنية أو القومية.

إن الحرب الباردة التي يستعر أوراها بين «الأيديولوچيات» المعاصرة من جانب، والأديان العليا (السماوية) من جانب آخر هي أخطر ـ بالنسبة لمستقبل البَشرية ـ من المشادة بين الشيوعية والرأسمالية، بالرغم مما يلقاه الحوار بينهما من اهتمام عالَمي. فهل هذه «الأيديولوچيات» أديان جديدة أم انتكاسات؟

في الحق إنها ليست أمراً جديداً.. إنها انتكاسة للحرية التي اكتسبها الإنسان عبر العصور.. إنها تأخر ورجعية إلى فجر الحضارة حينما كان الإنسان يعبد ما لا يستطيع أن يسيطر عليه من قُوَى غامضة، وهو حيناً تقدَّم واستطاع أن يكون له دور مهم في البيئة الطبيعية.. ترك عبادة قُوَى الطبيعة، وعبد قُوَته الجَماعية كما تتمثل في الحاكم.

إن الشيوعية قد أخطأت السبيل ـ لا في إصرارها على العدالة الاجتماعية ـ ولكن في تضحيتها بالحرية من أجل العدالة.

والرأسمالية أيضاً قد أخطأت السبيل ـ لا في إصرارها على احترام فردية الإنسان وحريته ـ ولكن في تضحيتها بالعدالة في سبيل الفردية.

إن كلاً منهما يؤيد جانب على حساب الآخر.. وكلتا النظريتين مادية، وكما كان الإنسان لا يستطيع أن يحيا بالخبز وحده.. فإن هذين التفسيرين الماديين للعدالة والحرية تفسيران خاطئان.

على أنه يبدو أن كلتا العقيدتين ستستمر في الحياة، ولن تستطيع إحداهما التغلب نهائياً على الأخرى.. والاثنان في صراع مع الوطنية أو القومية.. ولو أن هذا الصراع لا يحظى باهتمام كبير.. ولكنه ما إن تصطدم إحداهما مع الوطنية حتى تنتصر الوطنية.. وحينئذ يصبح الشيوعي والرأسمالي وطنياً أولاً وتتبعها صفته الثانية: الشيوعية أو الرأسمالية.

إن جميع «الأيديولوچيات» تشترك في نقطة ضعف واحدة قد تودي بها جميعاً، وذلك في منافستها للأديان العليا على اكتساب ولاء الجماهير.

وهذا معناه العودة إلى عبادة الإنسان.. فبعد أن حرَّرته الأديان من عبودية المجتمع، وعبودية الفرد، ليتجه

إلى الله وحده. . عاد الإنسان إلى سجن المجتمع، وبعد أن كان في علاقة مباشرة مع الحقيقة الخالدة. . عاد إلى ديكتاتورية العصور البائدة.

فتضاءل ليصبح مجرد نملة اجتماعية في مجتمع النمل!!

لقد استطاعت الأديان أن تُعلِّم الإنسان أنه ليس حشرة اجتماعية. . ولكنه إنسان ذو كرامة وإدراك واختيار. . ولن تستطيع «الأيديولوچيات» أن تنسيه هذه الحقيقة. . لأنها لا تستطيع أن تحقق له الانعتاق الروحي الذي منحته له الأديان. صحيح أن بعض الأديان قد أقامت سجوناً من صنعها، حينما خلقت من الأجهزة والنُظم ما أصبح حاجزاً بين الإنسان وخالقه، كما كان يصنع المجتمع القديم من قبل. . وهذا التحكم والتسلط من جانب بعض الأجهزة الدينية يتناقض أساساً مع سبب وجودهما فإنها وُجِدت لتحرر الإنسان من إسار المجتمع، وتضعه مباشرة أمام مسؤولياته في علاقة مباشرة مع الحقيقة السرمدية الخالدة. . ومع ذلك فالبرغم من هذا التسلط والتحكم من جانب بعض الأديان، إلا أنها استطاعت أن تمنح معتنقيها هدية لا تستطيع أن تجاريها فيها «الأيديولوچيات» الحديثة. . لقد منحته الاطمئنان من

المساعدة والتوجيه والمثل الأعلى الخليق بالطموح. . لقد منحته الراحة الروحية وحرَّرته من سجون المجتمع.

إن كل إنسان يخطئ ويفشل. . ويزل ويشقى. . وفي النهاية ينتهي إلى الموت، ومن هنا جاءت حاجته العميقة إلى العون الروحي الذي لا تستطيع أن تقدمه له «الأيديولوچيات» ستستمر في اجتذاب الناس إلى حظيرتها ما لم تعمل الأديان على أن تستعيد سلطانها على قلوب البَشر. . وهي لن تستطيع ذلك إلا إذا صدقت مع نفسها واستطاعت:

١ ـ أن تتعاون بدلاً من الصراع والعداوة.

٢ ـ وأن تهتم اهتماماً جدياً بحقائق العصر الحديث.

٣ ـ وأن تنفض عنها الطقوس التي طغت على جوهرها. . مما تراكم من الخزعبلات عبر العصور.

فالدين هو قلب الحياة للإنسان. . وهو جوهر الحياة للإنسانية. . هو النور الذي يغمر القلوب، فلا غِنَى للإنسان عن الدين. . ولن تستطيع «الأيديولوچيات» أن تحل محل الدين لأنها تمنحنا التعصب والتباغض، بدلاً من أن تمنحنا المحبة والتعاون، إنها قد تمنحنا لقمة

الخبز، ولكنها تسلبنا الطمأنينة النفسية والتحرر الروحي[1].

* * *

● **الرد على دعوى الماركسيين:**

أما ما يردده الماركسيون من أن الدين «أفيون الشعوب» فهو ادعاء باطل ومردود من وجهين:

الأول: أن الدين الصحيح لا يُخدِّر الشعب، ولا يلهيه عن المطالبة بحقه في الدنيا، استغراقاً بطلب النعيم في الآخرة! الدين الصحيح لا يقر الظلم، ولا يرضى بالفساد والانحراف، فإن صح هذا الادعاء في شأن بعض الأديان، فلا يصح بحال في شأن الإسلام.

الإسلام في الحقيقة ثورة إنسانية كبرى.. ثورة لتحرير الإنسان ـ كل إنسان ـ من العبودية والخضوع لغير خالقه.. ثورة في عالَم الفكر والضمير والشعور، وثورة في عالَم الواقع والتطبيق.

---

(١) عن مجلة «الوعي الإسلامي» السنة الثالثة ـ العدد السابع والعشرون ـ مقال (الأيديولوجيات والدين). ترجمة الأستاذ محمد همام الهاشمي الخبير الاجتماعي بمجلس التخطيط بالكويت.

وكان عنوان هذه الثورة هي هذه الكلمة العظيمة، كلمة التوحيد: «لا إله إلا الله» فكل مدّع أو متعاط للألوهية في الأرض، بالقول أو بالفعل، هو مزوِّر لا وجود له. ولا يستحق البقاء. وكل الذين زعموا لأنفسهم - أو زعم لهم بعض الناس - أنهم أرباب مع الله، أو من دون الله، يجب أن يسقطوا إلى الأبد، ويتواروا عن مسرح الحياة.

الناس إذن سواسية، لا يجوز أن يستعبد بعضهم بعضاً، أو يطغى بعضهم على بعض، فإذا ظلم بعض الناس وطغى وأفسد، كان على الناس أن يعترضوا طريقه، ويأخذوا على يديه، وإلا كانوا شركاءه في الإثم واستحقاق العقوبة العادلة من الله.

يقول الله الكريم: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾[1].

ويقول: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾[2].

---

(١) سورة هود: الآية ١١٣.
(٢) سورة الأنفال: الآية ٢٥.

ويقول الرسول ﷺ: «إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك الله أن يعمهم بعقاب من عنده»[1].

ويوجب على كل مَن رأى منكراً ـ أي ظلماً أو فساداً أو انحرافاً ـ أن يعمل على تغييره بكل ما يستطيع من قوته: «مَن رأى منكم منكراً فليغيِّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[2].

والتغيير بالقلب ـ الذي هو أدنى الدرجات وأضعف الإيمان ـ ليس أمراً سلبياً تافهاً. إنها جمرة الغضب والكراهية للفساد والمنكر تتوهج وتتقد في الجوانح حتى تجد الفرصة للتغيير بالقول أو الفعل، باللِّسان أو اليد. وأدنى ثمراته العاجلة النفور من الظَلَمة والمفسدين والمقاطعة لهم، فلا يؤاكلهم ولا يشاربهم، ولا يجالسهم ولا يصاحبهم.

وقد عَدَّ النبي ﷺ مقاومة الظلم والفساد الداخلي، كمقاومة الغزو والعدوان الخارجي. كلاهما جهاد في

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) رواه مسلم وغيره.

سبيل الله. بل حين سُئِل: أي الجهاد أفضل؟ قال: «كلمة حق عند سلطان جائر»[1] فاعتبر ذلك أفضل الجهاد وأعلاه.

فهذا دين يحرِّض على مقاومة الظلم حتى الموت. ويعد الميت في سبيل ذلك شهيداً في سبيل الله، بل في طليعة الشهداء المرموقين، بجوار حمزة بن عبد المطلب، سيد الشهداء كما قال عليه الصلاة والسلام: «سيد الشهداء حمزة، ورجل قام إلى إمام جائر، فأمره ونهاه فقتله»[2].

إن الإسلام يُربِّي المسلم على الشعور بالكرامة وعزة النفس، ويجعل ذلك من خصائص الإيمان وآثاره: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[3]، بل من خصائص الإنسانية ولوزامها: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾[4].

ولهذا يبرأ الإسلام مِن كل مَن يرضى لنفسه بالذل والمهانة، ويصبر على القيد يوضع في رِجله، أو الغل يوضع في عنقه دون أن يقاوم الظلم، أو يحاول التخلص

---

(١) رواه النسائي بإسناد صحيح كما في «الترغيب».
(٢) رواه الحاكم والضياء عن جابر وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع الصغير».
(٣) سورة المنافقون: الآية ٨.
(٤) سورة الإسراء: الآية ٧٠.

منه، ولو بالهجرة إلى أرض الله الفسيحة. يقول القرآن: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾[١].

ويرد الرسول ﷺ منطق الاستسلام الجبري أو السلبي لأحداث الحياة ووقائع الدهر، باسم الإيمان بالقَدَر. ويعتبر ذلك ضرباً من العجز المذموم في دين الله. إن النبي ﷺ قضى بين رجلين، فقال المقضي عليه لما أدبر: حسبي الله ونِعْمَ الوكيل! فقال النبي ﷺ: «إن الله يلوم على العجز، ولكن عليك بالكيس، فإذا غلبك أمر، فقل: حسبي اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكيل»[٢].

كره النبي العظيم من الرجل أن يواري عجزه بالحسبلة والحوقلة، بدل أن يواجه الأمر بما ينبغي له من الحكمة والتفطن. فذِكْرُ الله في غير موضعه عجز واستسلام.

ومن هنا جاء في وصاياه ﷺ: «المؤمن القويُّ خير

---

(١) سورة النساء: الآية ٩٧.

(٢) رواه أبو داود برقم (٣٦٢٧).

وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف. . . احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز»[1].

وجاء في أدعيته التي علَّمها لبعض أصحابه: «اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بك من الهَمِّ والحَزَن، وأعوذُ بك من العجز والكسل، وأعوذُ بك من الجبن والبخل، وأعوذُ بك من غلبة الدَّيْن وقهر الرجال»[2].

ففي هذا الدعاء استعاذة بالله تعالى من كل مظاهر الضعف التي تعتري الإنسان فتغلبه وتقهره وتذله.

ومثل ذلك ما جاء في دعاء القنوت: «اللَّهُمَّ إنَّا نستعينك ونستهديك ونستغفرك ونتوب إليك، ونؤمن بك ونتوكل عليك، ونُثني عليك الخير كله، نشكرك ولا نكفرك، ونخلع ونترك مَن يفجرك». . فانظر ما تحمله هذه العبارة: «ونخلع ونترك مَن يفجرك» من تحريض سافر على خلع ومقاومة كل ظالم فاجر، مهما تكن مكانته ومنصبه في الناس.

---

(١) رواه مسلم. . والعجز: ترك ما يجب فعله بالتسويف، والكيس: العقل وحُسن التصرف.

(٢) رواه أبو داود برقم (١٥٥٥) وفي سنده راوٍ ليِّن الحديث، ولكن المفردات المستعاذ منها ثبتت في الصحاح.

فهل يقال في مثل هذا الدين الذي يدعو إلى الثورة على الباطل والضعف والعجز والعبودية، ويحرِّض على نُصرة الحق والقوة والحرية ـ إنه أفيون الشعب: يُخدِّره ويمنيه بنعيم الجنَّة، ليسكت على مظالم حياته الدنيا؟!!

لعل «ماركس» كان معذوراً حين قال ما قال، لأنه لم يعرف الإسلام، ولم يعرف موقفه من الظلم والبغي والفساد، مع أن المنهج العلمي كان يُلزمه ألا يصدر حكمه عاماً شاملاً إلا بعد استقراء كامل، ودراسة تامة لكل الأديان ـ أو للأديان الكبرى على الأقل ـ وأثرها في الأُمم على مدار التاريخ، فإن لم يستطع كان عليه أن يحكم على الدين الذي عرفه لا على غيره. هذا هو مقتضى الأمانة العلمية، والمنهج العلمي.

قلت هذا عن «ماركس» منذ سنوات ونشرته مجلة «منار الإسلام» في دولة الإمارات العربية المتحدة. ثم أتيح لي أن أقرأ أخيراً ما كتبه الأستاذ الدكتور رشدي فكّار ـ المتخصص في دراسة الماركسية وفلسفتها وأُصولها ومدارسها ـ عن رجوع «ماركس» في أُخريات حياته إلى الاعتراف بالدين بعد الرفض له، وأن رفضه في المراحل الأولى كان سياسياً ولم يكن فلسفياً. . وأن بعض مفكري الماركسية الكبار من المعاصرين أمثال «روجيه

جارودي»[1] أكَّدوا ذلك، واعتبروه «مرونة» من ماركس. واعتبره «فكَّار»: «ارتداداً»، والأوْلَى تسميته «رجوعاً».

ينقل الدكتور فكَّار عن «ماركس» قوله بصريح العبارة:

«الإلحاد لا معنى له، لأنه إنكار للإله بلا مبررات، اللَّهُمَّ إلا إذا كان الهدف أن يحل الإنسان محل الإله»!

ويكرر «ماركس» نصاً: «الاشتراكية ليست في حاجة إلى مثل هذه الشطحات التجريدية الجوفاء، والمضاربة على الإله».

ومن الأدلة على تغير موقف «ماركس»: الرسالة التي وجهها إلى «البابا» يهنئه فيها على موقفه من «الحلف المقدَّس» ورفضه الدخول فيه، والانضواء تحت لوائه: حلف أُولئك الذين شوَّهوا جوهر الدين، حين اتخذوا منه «شُرطة روحية» في خدمتهم والدين منهم براء!

ومن ذلك مهاجمته للفيلسوف الملحد المشهور «فيورباخ» حيث وصفه «بأنه جعل من الوجدان والروح الدينية شيئاً راكداً جامداً، لا قدرة فيه أو له على التغيير».

و «فيورباخ» هو صاحب الكلمة الجاحدة الجاهلة: «ليس صواباً أن الله خلق الإنسان، بل

---

(١) كُتِب هذا الكلام قبل أن يهتدي «جارودي» إلى الإسلام.

الصواب: أن الإنسان هو الذي خلق الله»..

وكبرت كلمة خرجت من فِيه، ما قال إلا كذباً.

وأكثر من ذلك وأصرح وأوضح: هذا النص الذي يقول فيه «ماركس» حرفياً ـ كما يقول الدكتور فكّار ـ: «إن الإلحاد قد عاش وقته.. إنه تعبير سلبي، لا يعني شيئاً بالنسبة للاشتراكيين الأُصلاء، إن المعنى لديهم ليس هو إنكار الإله، وإنما هو تحرير الإنسان»[1].

ولكن مهما يكن عذر «ماركس» فما عذر الذين نشأوا في ديار الإسلام، ولم يكلفوا أنفسهم أن يدرسوه من مصادره ومن كتابات المحققين من علمائه ودعاته؟

إن الذي يقرأ الكتب الإسلامية يراها طافحة بإنكار علماء الدين وأئمته على الظلم والظَلَمة، والمناداة بإنصاف المظلومين من طبقات الشعب الكادحة[2].

* * *

---

(١) انظر في هذا: فصل (في الماركسية والدين) من كتاب «تأملات إسلامية في قضايا الإنسان والمجتمع» ص٥٥ ـ ٦٨ نشر مكتبة وهبة ـ القاهرة.

(٢) انظر: كتاب «مواقف حاسمة للعلماء في الإسلام» للأستاذين: علي شحاتة وأحمد رجب، ففيه أمثله عديدة على ذلك. وخاصة في فصل (حماة الشعب).

أثر الإسلام في حركات المقاومة والتحرر من الاستعمار

إن الذي يقرأ التاريخ الحديث يجد أن التيَّار الإسلامي كان وراء كل حركات المقاومة المستميتة للاستعمار في كل صِقع من ديار الإسلام.

يقول الأستاذ: «برنارد لويس» في كتاب «الغرب والشرق الأوسط»:

«ومنذ بدء التغلغل الغربي في العالَم الإسلامي، حتى يومنا هذا، كانت أهم الحركات الفكرية المتميزة المهمة الأصيلة التي قامت في وجهه: حركات إسلامية».

«ولقد كان اهتمام هذه الحركات بمشاكل الإيمان والعقيدة، وبمشاكل الجماعة المسلمة التي سيطر عليها غير المسلمين، أكثر من اهتمامها بأرض أو بلد احتله الأجانب».

«وأقوى الحركات الثورية التي قامت، والتي كسبت أقوى التأييد، وأثارت حماس أغلب الجماهير كانت دينية شعبية في أُصولها، وفي شعاراتها، وفي الأُسلوب الذي عبَّرت به عن غايتها وسبيلها».

«ولقد مرَّ العالَم الإسلامي في تاريخ مواجهته الطويلة للمدنية الغربية بمراحل متعددة من اليقظة والمقاومة، من المسايرة والرفض.. وحتى الأمس القريب كان للمشاكل التي تظهر دراسة، وقياس، وحلول في إطار الإسلام».

«ونستطيع القول في أيامنا هذه: إن من التهور التأكيد على أن «علمنة» المشاعر الإسلامية بلغت حداً لا رجوع بعده»[1].

وفي موضع آخر يقول صاحب كتاب «الغرب والشرق الأوسط»:

«وأهم حركات المقاومة للغربيين المنتصرين المحتلين، وأكثرها نجاحاً، كانت في الأناضول، حيث قام جمع من الثوّار بقيادة مصطفى كمال، وتحدوا الحلفاء واليونان والحكومة العثمانية التي كانت قائمة في ظلهم».

«ولقد حجبت علمانية وقومية الكماليين التي أعلنوها أخيراً، الطابع الإسلامي القوي لحركة المقاومة

---

(١) «الغرب والشرق الأوسط»: ترجمة الدكتور نبيل صبحي ص١٤٨، ١٤٩.

في أول مراحلها، ولقد كان شعار الحركة: تحرير أرض الإسلام، وشعوب الإسلام، وتحرير الخليفة ـ السلطان ـ وطرد الغزاة المشركين».

«ولقد كان الزعماء الدينيون من العلماء ومن حركة الإخوان الدراويش، أبرز المؤسسين، وأقوى المساندين لحركة المقاومة، التي قادها ـ بعد ذلك ـ مصطفى كمال»[1].

أي إن حركة المقاومة كانت في أساسها إسلامية، غذتها الروح الإسلامية والمشاعر الإسلامية، ثم سرقها وقادها العلمانيون القوميون: مصطفى كمال وأشياعه، ونسبوا فخرها لأنفسهم، وقطفوا ثمارها لعلمانيتهم.

والوجه الثاني في الرد على الماركسيين: أن الذي عابوه على الدين وقعوا هم فيه! عابوا على الدين ما فيه من غيبيات وتنبؤات مستقبلة مجهولة! ومذهبهم مليء بالحتميات والتنبؤات التي يكنها صدر الغيب!

عابوا على الدين ما فيه من تعظيم للأنبياء والقدِّيسين، وما فيه من رسوم وشعائر تعبدية. ومع هذا

---

(١) المصدر السابق ص١٦٨.

نجدهم قد اتخذوا الأسلوب نفسه، فإن الماركسية ـ كما هو معلوم لدى دارسيها ونُقَّادها ـ ليست مجرد فلسفة باردة، إنها ديانة، لها عقائدها وإنجيلها، ورسلها وقدِّيسوها وطقوسها وشعائرها، «وإن حشود المتعبدين يمرون يومياً في «موسكو» أمام جثمان «لينين» في لحده الرخامي الأسود، وعلى وجوههم أمارات الخشوع والإجلال، مرور المؤمنين من قبل أمام رفات الشهداء»[1] (يعني: في المسيحية، فالإسلام يعتبر هذه المظاهر من الشِرك والوثنية).

يقول الباحث الباكستاني الأستاذ ميرزا محمد حسين في كتابه عن «الإسلام وتوازن المجتمع»[2]:

«إن البلشفية (الشيوعية) تستميت في عداء الدين، من أجل مظاهره الغامضة، وعدته من الطقوس والشعائر، ومع ذلك لم تحرز البلشفية تفوقها إلا بانتحال أساليب

(١) «كرمنلو» ص١٥٣ وما بعدها. نقلاً عن المذاهب الأخلاقية للدكتور عادل العوا: ٢/٢٠٣، ومن قريب رأينا الجماهير الغفيرة بالملايين في الصين الشيوعية تقف وقفة التقديس والخشوع نفسها أمام جثمان الزعيم الصيني «ماو» فكيف يفسُرون هذا الموقف تفسيراً مادياً وفقاً لفلسفتهم التقليدية؟!!

(٢) ترجمة فتحي عثمان ص٧٩.

الدين ووسائله. ومن هنا تُدْعَى الآن «ديناً».

أما كتبها المقدَّسة فهي تعاليم «كارل ماركس» التي يُنظر إليها بكل إجلال، باعتبارها كشفاً وإلهاماً، كما يُنظر إليها باعتبارها معصومة من أي خطأ!

وللشيوعية شُرَّاحها ومريدوها ودعاتها، حتى شهداؤها!

ولها عقائدها وأُصولها، وبدعها الزائفة المرفوضة!

وهي تأخذ في مطاردة الهراطقة.. وفي تصفية الزنادقة، وفي إقامة محاكم التفتيش، وفي عمل المذابح ضد المتشككين والمنكرين والمرتَدِّين!

ولها طرائقها في «الإلهام» و «الحرمان»!

ولها معبد أوثانها، وأيقوناتها. الفاتيكان لديها هو «الكرملين». والوثائق البابوية هي كتابات «ستالين»!

ولها طقوسها ورموزها المعقَّدة مثل أي دين![1].

وإنها لتشغل قلوب أتباعها بوعود الخلاص، وآمال المستقبل، والجزاء المنتظَر في نعيم الدنيا!!

---

(١) «الخطيئة» ـ في نظر هذه الديانة ـ هي الرأسمالية، و «إبليس وجنوده» هو: القُوَى البرجوازية والرجعية، و «المُخلِّص» هو =

وهي تتظاهر بأنها لا تعرض للدين في معانيه الموروثة التي تلقى احترام الناس، كما أنها لا تحاول إصلاح مفاهيمه إصلاحاً سليماً يُعتد به.

ولكنها تعمل على أن تطوي الدين تماماً وتحل محله شعارات معادية للألُوهية، ولكنها «دين» من طراز غريب!

والواقع أن الذي ينبغي أن يُطلق عليه بحق أنه أفيون الشعب هو: الإيمان بالشيوعية، فهي التي تُمنِّي الناس بجنَّة موهومة على الأرض، جنَّة تختفي فيها الفوارق، وينعم الناس بالرخاء والأمن والمساواة والحرية.

وقد مضى على قيام أول دولة ماركسية نحو ستين

= الحزب، و «مملكة السماء» هو الشيوعية، و «الكَهَنة» هم المحترفون الثوريون الذين يستشفون أعمق أعماق الطبقة الكادحة، ويتلقون الأسرار الحقيقية من خلال «رؤاهم» ويذيعونها على «المؤمنين»، وأخرويات هذه العقيدة الجديدة ليست «ميتافيزيقية»، بل هي أخرويات «علمية»، فهي «اشتراكية علمية». أما الطقوس والابتهالات فيلتمسها هؤلاء في نظرية وتكتيك الحزب عند لينين.. الخ.

انظر: «حلقة البحث الإسلامية»: ما بعد النكبتين ص٢٢ ـ ٢٣.

سنة وهم في ظل ديكتاتورية متسلطة مستبدة لم ير التاريخ أشد منها ظلماً وطغياناً وتجبراً. وأصدق شاهد على ذلك حملات التطهير وحمّامات الدم، التي تُقام بين حين وآخر.

ومن الغريب أن تجد في أبناء المسلمين مَن ينادي بإبعاد دينهم عن قيادة المجتمع، وتوجيه الحياة فيه، على حين نجد من مفكري الغرب مَن يترقب أو يتمنى أن يكون للإسلام دور في هداية المجتمع العالمي، والأخذ بيديه إلى الصراط المستقيم، أو المنهج المتوازن الذي هو طابع هذا الدين.

يقول الدكتور «جرمانوس»: «إن مستقبل العالَم وخلاصه من خطر الاصطدام الاجتماعي الذي يهدده، لن يكون إلا في المزاوجة بين الحضارة الأوروبية بدرسها وعلمها، وبين الروح العالية التي تنطوي عليها عقائد الدين الإسلامي. وإني أُؤمل أن يكون الإسلام قادراً مرة أُخرى على تحقيق هذه المعجزة في سبيل وحدة الجماعة الإنسانية..».

* * *

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *